



سياسية – فكرية – ثقافية

اقتصادية اجتماعية

الحزب الشيوعي السوري – المكتب السياسي

المسار - العدد (12) - كانون الثاني/يناير 2018

الافتتاحية:

حول الوضع الإقليمي

يقول ستيفن كاهان كاتب ومخرج فيلم "syriana" إلى أن هذا المصطلح يشير "إلى سعي الإنسان المستمر لإعادة خلق منطقة جغرافية لكي تتناسب مع حاجاته الخاصة"، وسمع به لأول مرة في مراكز الدراسات الأمريكية بوشنطن. وأنه فهم عام 2002 أن هذا المصطلح يدل على "إعادة تشكيل منطقة الشرق الأوسط" ولكن العالم الآن وليس فقط الشرق الأوسط يضج بالتغيير وباستعارة عبارة كونديليزا رايس فان العالم حالياً يشهد مخاض ولادة جديدة. إدارة ترامب تقوم بقصد أو بغير قصد من خلال التركيز على مصلحة أميركا المباشرة وتتجاهل مصالح الحلفاء على تغيير قواعد اللعبة التي اعتمدتها

اميركا بعد الحرب العالمية الثانية وهي تقوم بتشكيل واقع جديد يدفع الكثير من القوى العالمية للبحث عن ذاتها ومصالحها. فأوروبا بدأت تشعر بانكشافها امامروسيا ووقوعها بين فكي كماشة (بوتين وترامب) فكلاهما يتمنيان وربما يسعيان لتحطيم الاتحاد الأوروبي كما يشجعان التيار الشعوبية والتي تنتامي في القارة من شرقها حيث يزداد التبعض ومعادات الاجانب وصولا الى بريطانيا التي صوتت بدفع من هذه الحركات لاجراء استفتاء للخروج من الاتحاد الأوروبي، ولأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية تصل الشعوبية الى المانيا قلب اوروبا و مجرد عودة الذكريات لهذا البلد تثير فزع العالم. وببريطانيا العظمى التي ترى نفسها مستشارا ومرشدة أميركا تجد نفسها متجاهلة من قبل ادارة ترamp بل لا تعرف متى ستوقع على اتفاقاً تعاونياً جديداً مع أميركا بسبب خروجها المنتظر من الاتحاد الأوروبي، وتركيا ترى ان حليفها الاقرب في الناتو يتحالف مع عدوها الاول (والوحيد القادر على ايذائها من الداخل) حزب العمال الكردستاني في سوريا. وايران ترى عودة العداء الاميركي المباشر لنظامها بل وتسعير العداء بشكل لم يسبق له مثيل من قبل السعودية قومياً وطائفياً وشعبياً. وروسيا المتoscمة خيراً بتراجمب اعادت حساباتها فالعداء الاميركي لروسيا أصبح أشد والعقوبات بدل أن تزال ازدادت قوة ودقة واوكرانيا أصبحت تتلقى أسلحة نوعية والتلاقي الوحيد مع الادارة الاميركية في سوريا غير اكيدوا الاتفاقيات المبرمة بين الطرفين ربما لن توضع في التنفيذ القريب، كل هذا وغيره يجعل العالم أكثر هيولى واقل استقرار أي أكثر "syriana".

بعد ازمتي السويس عام 1956 واحتلال العراق عام 2003 هذه هي المرة الثالثة بعد الحرب العالمية الثانية التي تتعرض به العلاقات الاوروبية الاميركية لأزمة حقيقة وبعد التناقض بين ميركل وترامب وعدم اكتراشه برئاسة الوزراء البريطانيه تيريزا ماي وجد الأوروبيون صلة بينهم وبين الادارة الاميركية عبر الرئيس الفرنسي ماكرون الذي حاول مد جسور بين ضفتي الاطلسي والوصول الى قواسم مشتركة وقد نجح مرحليا في الحفاظ على الاتفاق النووي وفشل في قضية المناخ. اذا كان الوضع عالمياً بهذه الهيئة فعند الوصول لمنطقتنا تزداد الامور تعقيداً، فقد عاد ترamp فيالمنطقة الى مثلك التحالف الذهبي السعودية ومصر واسرائيل بغية تشكيل حاجز قوي بوجه ايران، ولعبت السعودية رأس الحربة في هذه الاستراتيجية بينما ظل الدور المصري مسانداً ومستمراً تحضيراً لدور جديد لمصر في المستقبل القريب، وكان الامير السعودي الشاب محمد بن سلمان قاد مجموعة من التغييرات الداخلية حيث غير من قواعد الحكم ولجم المؤسسة الدينية عن التدخل في حياة الناس واستعدى الامراء بأقصائهم عن شؤون الحكم وبحملته على الفساد؟ وتغييرات خارجية بدئها بحرب اليمن الى العداء مع قطر ثم الخلاف مع ايران والتنسيق المحتمل مع اسرائيل حول ايران، كل هذا يجعل السعودية في حالة استثار واستنزاف دائم ولا تقبل بالخروج عن مشورتها في المنطقة.

وتحاول الادارة الاميركية سحب العراق من المظلة الإيرانية عبر شق البيت الشيعي ودعم تحالفات جديدة داخل العراق وبين العراق والدول الخليجية. كما ان اسرائيل رجعت لموقعها الرئيس كقاعدة امامية للأميركا والغرب وما اعلن القدس عاصمة لإسرائيل سوى تعبيراً عن هذه السياسة، كما تحاول تحريم ايران في سوريا عبر التفاوض مع روسيا وهذا ما عبر عنه حرفياً تيلرسون. ان جيد المنطقة عما قبل "الربيع العربي" هو روسيا فلم تعد دولة بعيدة بل اصبحت بعد التدخل في سوريا والقواعد الروسية تعتبر دولة جوار لدول المنطقة وان استقرار روسيا في المنطقة وبحثها عن المشاريع نقل النفط والغاز يدفعها لإقامة علاقات جيدة مع دول المنطقة فلم تتوفر جهداً لاستعادة العلاقات مع تركيا وبالمشاركة مع ايران توصلت لمؤتمرات استانا التي ضمنت مصالح الدول الثلاث في سوريا وشبكت مع مصر علاقات مميزة كللتها باتفاقات اقتصادية ضخمة حيث بدأت بتنفيذ المدينة الصناعية الروسية بجانب قناة السويس واشترت روسنيفت 30% من حقل ظهر العملاق أكبر حوض غاز في المتوسط ووقع مصراً وروسيا في 11 كانون أول تنفيذ محطة الضبعة النووية العملاقة، وانضمت السعودية الى راغبي العلاقة مع روسيا وبعد زيارة الملك السعودي لموسكو وتوقيعه لاتفاقات اقتصادية معها وشراء صواريخ S400 تكون روسيا للمرة الأولى في تاريخها شبكت علاقات مميزة مع الدول الاقليمية الأربع الكبار، تختزل

زيارة بوتين في يوم واحد ثلاثة دول سوريا ومصر وتركيا وتوقيعه اتفاقين نووين في الضياعة ومرسین بداية عصر روسي جديد في المنطقة يقوم على ملئ اي فراغ تركه الولايات المتحدة بدون اي صدام معها، وهذا ما عمل عليه في سوريا عبر شراكة تركية ايرانية ومحاولة ارضاء السعودية عبر الوفد المفاوض وأخذ تعهدات من الرئيس السوري لإبداء مرونة وبعض التنازلات في جنيف وبهذا تهيء للمرحلة الثانية من الأزمة السورية وتحضيرا لإمكانية اتفاق في جنيف وجلب الاموال الدولية لتكون سوريا نهاية زلزال الحركات المسلحة (الاسلاموية) في المنطقة وبداية عودة الدول المركزية المدعومة خارجيا.

تبعد الأزمة السورية في مرحلة مختلفة كلها عما مضى وان وجود وفد مفاوض مقابل وفد النظام ينزع اي حاج لبدء مفاوضات جدية وان الضغط الدولي قد يدفع للوصول لاتفاق مقبول من الطرفين، كما أن روسيا لازالت تلوح بمؤتمر سوتشي في وجه المعارضة والدول الغربية حال فشل جنيف، ولكن هل استعدت المعارضة لليوم الذي يلي أي اتفاق؟

روسيا بعد الاتحاد السوفيتي.. والصراع على البلقان الأوروبي

أطلق برجينيسي مصطلح البلقان الأوروبي على جمهوريات القوقاز (جورجيا، وجمهورية أذربيجان، وأرمения) وأسيا الوسطى (казاخستان، أوزبكستان، قرغيستان، تركمانستان، أفغانستان)، وإلى حد ما كل من إيران وتركيا، بالإضافة إلى البلقان الأوروبي، والذي اعتبره قلب العالم الأوروبي الممتد من البرتغال إلى مضيق بيرينغ ومن لابلاند إلى ماليزيا، والتي شكل تاريخياً منطقة النفوذ لأي امبراطورية كان لها سيطرة عالمية.

شكل انهيار الاتحاد السوفيتي فراغاً جيوبولياً في هذه المنطقة، وبشكل استثنائي سيطرت عليه لأول مرة في التاريخ قوة غير أوراسية (الولايات المتحدة)، ولم تكن هذه السيطرة استثنائية فقط من حيث أنها قوة غير أوراسية ولكن أيضاً من حيث مقومات هذه القوة فأميركا كانت تحتل مرتبة عليا في المجالات الحاسمة الأربع للقوة العالمية :

وهي المجال العسكري الذي تملك فيه قدرة وصول عالمية لا مثيل لها، والمجال الاقتصاد الذي تبقى فيه ذات قدرة تحرك رئيسية في النمو العالمي. حتى ولو واجهت تحديات في بعض المظاهر من قبل بعض الدول (لا تملك أي دولة منها المزايا الأخرى للقوة العالمية)، والمجال التكنولوجي حيث تحافظ فيه على المجالات الحساسة في الابتكار؛ والمجال الثقافي الذي تتمتع فيه، بالرغم من بعض السلبيات، رأء لا يمكن منافسته، وخاصة بين شبان العالم، الذي يرون في الولايات المتحدة دولة تملك نفوذاً سياسياً لا تقترب أي دولة أخرى من مجال القدرة على منافسته. وهكذا، فإن الجمع بين هذه المجالات الأربع هو الذي يجعل من أميركا تلك القوة العظمى العالمية الوحيدة.

كان الجهد الرئيسي الأمريكي متوجهاً لمنع ظهور قوة أوراسية جديدة تهدد هذه الهيمنة الأمريكية الاستثنائية. فعملت خلال العقد الأخير من القرن الماضي على إعادة الهيمنة الروسية على البلقان الأوروبي الذي شكل منطقة الاشتباك بعد المشاكل التي واجهها اندماج روسيا مع الغرب في عهد يلين، والتي كانت تتوقع احتراماً أكبر لها ولمصالحها في شرق أوروبا ووسط آسيا.

سيطرة على روسيا بعد سقوط الاتحاد ثلاثة اتجاهات رئيسية:

اتجاه بزعامة يلين ووزير خارجيته ايغور غيرار كان يعول على الدعم الغربي وفرض صندوق النقد الدولي لحل مشاكل روسية الاقتصادية.

واتجاه يركز على العلاقات مع الدول الأوروasiوية ويدعو إلى علاقات جيدة مع الصين والشخصية البطئية والتعاون مع الغرب.

واتجاه يضم تجمع من القوميين والشيوعيين الذي كان يرى في الغرب عدواً ويدعو إلى إنشاء سلطة مركزية روسية قوية وإعادة السيطرة على الجمهوريات المستقلة عن التحالف السوفيتي.

حاول يلتسين تقديم نفسه شريكاً لبيرالي للغرب، وحاول دمج روسية في الهياكل الاقتصادية والسياسية للغرب، وقام باتباع سياسة اقتصادية تعتمد على الصدمة لتحقيق اثر إيجابي على الاقتصاد تمثلت بمحاولات ابعد الدولة عن الاقتصاد والتخصيص السريع لقطاعات الدولة في محاولة لجذب الرساميل الغربية، ولكن كانت النتيجة كارثية على الاقتصاد الروسي، وعلى العكس لم تحصل روسيا على إلا على مساعدات قليلة من الغرب بالإضافة إلى اتهام المخابرات الأمريكية بدعم المتطرفين في الشيشان، وفهمت هذه الاجراءات في الغرب بأنها إعلان هزيمة روسيا حسب ما جاء على لسان بوش الاب الذي أعلن أمريكا القوة الوحيدة المسيطرة في العالم..

ظهرت نتائج السخط في روسيا على الادهانة الأمريكية في انتخابات 1995 حيث سيطر الشيوعيون على البرلمان الروسي، وتم تعيين الشيوعي المخضرم بريماكوف المؤيد لتقارب مع الصين وإيران وزيراً للخارجية كدليل على النية بتعاطي مختلف مع الغرب.

كانت الاستراتيجية الأمريكية ترتكز على دعم الدول المستقلة عن الاتحاد السوفيتي، وتنمية النزعية الاستقلالية لديها بدعمها اقتصادياً، أو بضمها إلى حلف شمال الأطلسي والاتحاد الأوروبي ، التي كانت ترى فيه رأس الجسر الديمقراطي (بحسب تعبير برجينسكي) والتي يشكل استمرار توسيعة توسيعاً لنفوذ أمريكا وهيمتها على المحيط الهندي لروسيا، ففي عام 1999 تم ضم ثلاثة دول لحلف الناتو كانت تعتبر ذو أهمية عسكرية كبيرة في حلف وارسو هي المجر بولندا وجمهورية التشيك لتعود وتتضمن للاتحاد الأوروبي في عام 2004 بالإضافة إلى استونيا ولاتفيا ليتوانيا وسلوفاكيا وسلوفينيا بالإضافة لضمهما أيضاً للاتحاد الأوروبي ، وفي عام 2007 تم ضم بلغاريا ورومانيا للاتحاد الأوروبي وكذلك كرواتيا في 2013، بالإضافة لنشرها قواعد في كل من أوزبكستان وقرقازستان الجمهوريتان السوفيتيتان السابقتان

احتلت أوكرانيا وأذربيجان مكاناً خاصاً في حسابات صناع القرار في كل من روسيا وأمريكا، فبحسب رأي برجنسي تتحل أوكرانيا مكاناً جديداً وهاماً في رقعة الشطرنج الأوروبي، فهي دولة محورية جيوبرلينية لأن وجودها ذاته كدولة مستقلة يساعد على تحويل أو تغيير موقف روسيا. وهكذا، فإن روسيا بدون أوكرانيا لا تشكل إمبراطورية أوراسية، فأوكرانيا بملايينها الاثني و الخمسين ومواردها الكبيرة ووجودها على البحر الأسود، ومرور خطوط الطاقة فيها، فاستعادتها تعني بشكل أوتوماتيكي استعادة ثروات هائلة ويجعل من روسيا دولة إمبراطورية قوية، ممتدة عبر أوروبا وأسيا. وكذلك، فإن فقدان أوكرانيا لاستقلالها سوف يترك تأثيرات كبيرة على أوروبا الوسطى، دافعاً بخطوط المواجهة بعيداً عن موسكو التي تبعد فقط 300 كيلو متر عن أوكرانيا، هذا الموقع الاستثنائي لأوكرانيا جعلها في حالة عدم استقرار سياسي وأمني منذ انهيار الاتحاد السوفيتي بسبب الصراع الروسي الغربي. وبالرغم من صغر حجم (مساحة) أذربيجان وضآلته عدد سكانها، فإنها تعتبر، بما تملكه من مصادر طاقة كبيرة، حساسة جيوبرلينية. فهي سادة الزجاجة الحاوية على ثروات حوض بحر قزوين وأسيا الوسطى والتي يمكن أن تصبح لا قيمة لها إذا أصبحت أذربيجان خاضعة كلياً لسيطرة موسكو. يمكن أيضاً أن يتم إخضاع الموارد النفطية الهامة جداً في أذربيجان للسيطرة الروسية. وإن أذربيجان المستقلة والمرتبطة بالأسواق الغربية بأنابيب نقل النفط التي لا تمر عبر أرض يسيطر عليها الروس، تصبح أيضاً صلة وصل رئيسية بين الاقتصادات المتقدمة والمستهلكة للطاقة من ناحية وبين الجمهوريات الآسيوية الوسطى الغنية بالطاقة من ناحية ثانية.

في منتصف الشهر السابع من عام 2009، أبرمت اتفاقية في العاصمة التركية أنقرة تمهد الطريق أمام إقامة مشروع خط أنابيب غاز ضخم (نابوكو') لنقل الغاز من وسط آسيا إلى أوروبا. بدأت فكرة المشروع عام 2002 مع بداية هذا القرن، واتخذت أول خطوة عملية فيه في بداية عام 2002 حينما وقع بروتكول للاشتراك في المشروع بين كونسورتيوم من شركة (أو إم في جاز) النمساوية و(بوتاش) التركية و(إم أو إل) المجرية و(ترانس جاز) الرومانية و(بلغار جاز) البلغارية، والهدف الرئيسي من هذا المشروع هو ربط احتياطيات الغاز في آسيا الوسطى عبر بحر قزوين بأوروبا من خلال خط أنابيب يعبر بحر قزوين إلى أذربيجان ثم إلى النمسا، دون المرور بأراضي دولة روسيا، وفقت روسية بسبب ازماتها الاقتصادية مكتوفة اليدي في الحرب ضد صربيا والعراق وأفغانستان، متخلية عن مناطق كانت تعتبرها ذو أهمية كبيرة عسكرياً واقتصادياً أيام الاتحاد السوفيتي.

وكانت روسيا تعيش منذ صيف عام 1998 أزمة اقتصادية وسياسية عميقه مع تراجع سعر صرف الروبل، وتزايد عدد الفقراء، وانهيار القرارات الصناعية وفقدان السكان تقىهم بالرئيس بوريس يلتسين. وفي هذه الظروف اختار يلتسين بوتين خليفة له، وعيّنه في أغسطس/آب عام 1999 رئيساً للوزراء.

في البداية لم ير أحد مستقبلاً سياسياً لبوتين الذي كان شخصية غير معروفة وبدون شعبية تذكر، ومن اللافت أنه كان خامس رئيس حكومة خلال 18 شهراً. حيث قال غينادي سيليزنيوف رئيس مجلس الدوما آنذاك "إذا أُعلن يلتسين شخصاً ما خليفة له، فذلك يعني أنه يقضي على المستقبل السياسي لهذا الشخص، لقد حصل ذلك مرات عديدة".

وجاء تعيين بوتين رئيساً للوزراء بالتزامن مع توغل مسلحين شيشان في أراضي داغستان. ورد بوتين على هذه التحديات بحزم بالغ إذ أطلق عملية عسكرية في الشيشان التي كانت تتمتع باستقلال شبه كامل منذ الحرب الشيشانية الأولى (1994-1996) ونال رئيس الوزراء بفضل موقفه هذا تأييداً شعبياً متزايداً، إذ كان 31% فقط من المواطنين الروس يؤيدون خطوات بوتين في أغسطس/آب عام 1999، لكن عدد مؤيديه ازداد بحلول يناير/كانون الثاني عام 2000 إلى 84%.

حقق بوتين في مهمته في الشيشان نجاحاً باهراً بعد 15 عاماً على بدئها، والتي لم يعتمد فيها فقط على القوة العسكرية، بل أيضاً على مهاراته الدبلوماسية وعلى قدرته على بناء علاقات طيبة مع النخبة المحلية. وهو لم يتمكن من استعادة السيطرة على الجمهورية المتمردة فحسب، بل وساهم في إعمارها واستعادة الاستقرار الأمني وإطلاق عملية النمو الاقتصادي المستدام حيث تشكل الان أقل المناطق فقراً في روسيا.

أعلن بوريس يلتسين تخليه عن السلطة في الرسالة الرئاسية التقليدية إلى الشعب بمناسبة حلول سنة 2000 الجديدة. وأصبح بوتين قائماً بأعمال الرئيس ومرشحاً بارزاً في الانتخابات الرئاسية المبكرة.

خاض بوتين الانتخابات الرئاسية ضد كتلة شكلها السياسيون المخضرمون مثل يفغيني بريماكوف وبيوري لوچکوف وشایمیف، بدعم من الأوليغارشي ميخائيل خودوركوفسكي.

قام بوتين بسلسلة من الإصلاحات الاقتصادية كان من أولى نتائجها الإطاحة بحلفائه، ومن أشهر هؤلاء كان الملياردير ميخائيل خودوركوفسكي الذي قضى 10 سنوات في السجن بعد إدانته بالعديد من الجرائم الاقتصادية، وأيضاً بوريس بيريزوفسكي الذي توفي في عام 2013 في المنفى ببريطانيا بعد أن هرب من روسيا في عام 2003، حيث وجهت إليه تهم جنائية كثيرة وتمكن بوتين خلال فترة قصيرة من إعادة بناء منظومة الإدارة وتعزيز مؤسسات السلطة المركزية والمحلية وتشكيل فريق من المدراء الفعاليين. وغير وجه الحياة السياسية في البلاد، وذلك بعد تشكيل حزب "روسيا الموحدة" الحاكم، وظهور أحزاب قوية جديدة، وتراجع حاد لشعبية الأحزاب الليبرالية القديمة. ومنذ سنوات تسيطر على الدوما (مجلس النواب) بأكمله 4 أحزاب فقط، هي "روسيا الموحدة" والحزب الشيوعي والحزب

الليبيرالي -الديمقراطي بقيادة فلاديمير جيرينوفسكي وحزب "روسيا العادلة" اليساري بزعامة سيرغي ميرونوف.

وفاز بوتين في الانتخابات ونال 71.3% من أصوات الناخبين. تجدر الإشارة إلى أن الدستور الروسي يمنع الرئيس من الترشح بعد قصائه ولaitين رئاسيتين متتاليتين. ولذلك بعد انتهاء ولايته الرئاسية الثانية، انتقل بوتين للعمل في منصب رئيس الوزراء، فيما تولى مديرًا مديري منصب الرئيس. ورث بوتين في الفترة 2008-2012 على المسائل الاقتصادية بالدرجة الأولى، وعلى إصلاح الحكومة والمؤسسات المرتبطة بها. وتجاوزت البلاد خلال هذه الفترة الأزمة الاقتصادية عامي 2008 و2009 بسبب تلك الإصلاحات وارتفاع أسعار النفط، ومن أهم تلك الإصلاحات هو تقديم الدعم لشركة غازبروم الروسية التي تسيطر الحكومة الروسية على 51% من أسهمها والتي تقوم بدور 32% من حاجة الاتحاد الأوروبي من الغاز، حيث قامت شركة غازبروم عام 2009 بشراء الغاز من تركمانستان التي تنتج حوالي 80 مليار متر مكعب من الغاز سنويًا بالإضافة إلى شرائها غاز أذربيجان مما جعل خط نابكودون مصدرًا حقيقية للغاز.

مثل خطاب بوتين في مؤتمر ميونيخ للأمن في عام 2007 م نقطة تحول استراتيجية في الموقف الروسي، عندما انقاد الأحادية القطبية واعتبرها تدمير العالم وللسيد الوحيد، علماً بأنه كان خالٍ ولايته الرئاسية الأولى ينطلق من ضرورة وجود تحالف بين روسيا والغرب. وجاء تعديل موقفه على خلفية التدخل الأمريكي في العراق، والدعم الغربي لما عرف بـ"الثورة البرتقالية" في أوكرانيا، والانتقادات التي وجهها الغرب بشأن قضية خودوركوفسكي، والتطورات الأخرى في السياسة الداخلية لروسيا.

بدأت أولى الترجمات العملية لهذا التوجه الروسي الجديد في ردة الفعل الروسية في 2008 ضد الهجمات الجورجية على أوسيتيا وابخازيا، والتي ترك فيها الغرب وحلف الأطلسي جورجيا وحيدة في مواجهة روسيا، وعلى المستوى السياسي كان الإعلان الرسمي عن تأسيس نظام ثالثي القطبية في قمة البريكس في حزيران 2009 والذي كان يعكس في الأصل رغبة بالتحرر من الهيمنة الأمريكية أكثر منه تشكيل لقطب عالمي جديد.

يعكس وصف وزير الخارجية الأمريكي الاحتلال الروسي للقرم (بالعمل العدائي المحير) التخطيط الأمريكي والنقلة غير المتوقعة من قبل أمريكا والغرب، وكان الاعتراف الأولي على العقوبات الأمريكية على روسيا بسبب تضرر مصالحها من تلك العقوبات أولى مظاهر التخطيط الأمريكي في مواجهة روسيا والتي كان يعتمد بشكل دائم على التنسيق مع أوروبا في كل خطوة تجاه روسيا.

يأتي التدخل العسكري الروسي في سوريا في 2015 ضمن هذا السياق الممتد من وصول بوتين إلى السلطة في 2013 حيث جنبة حليف الإيراني مصير القوات السوفيتية في أفغانستان، هذا التحالف الذي قال برجنسكي عن امكانية تشكيله عند تسلمه بريماكوف لوزارة الخارجية الروسية في عهد يلتسن والمعرف بدعواه لتحالف مع إيران والصين، إن أمريكا ليست غبية بما يكفي لسماح بإقامة هكذا تحالف.

ووجدت تركيا في انتزاعها باتجاه المحور الإيراني الروسي فرصة للحفاظ على دورها الإقليمي، بعد أن تلقت رسالة واضحة من الاتحاد الأوروبي بأنه غير مرغوب فيها، وبعد احساسها بتخلّي أمريكا عنها بعد اسقاط الطائرة الروسية ودعم الأكراد في شمال سوريا، وخصوصاً بعد الانقلاب الفاشل في 15 يوليو 2016 والذي وجهت فيه أصابع الاتهام لفتح الله كولن الموجود في الولايات المتحدة ، وكان من ابرز نتائج هذا التقارب الروسي توقيع اتفاقية لمد أنابيب غاز عبر تركيا لتوريد غاز آسيا الوسطى إلى أوروبا والتوصي على اتفاقية لتزويد تركيا بمنظومة اس 400 لأول مرة في التاريخ تشتري فيه تركيا سلاحاً استراتيجياً من روسيا بعد أن كانت تعتمد بالكامل على الغرب في هذا المجال، وكذلك التنسيق في القضية السورية ، ليرسم بذلك بوتين بنار والتحالفات خط يمتد من أوكرانيا إلى سوريا تؤمن به روسيا السيطرة الكاملة على مناطق انتاج الغاز وطرق إمداده إلى أوروبا، وتقضى بذلك على إمكانية تحبيدها.

تعكس تصريحات المسؤولين الاتراك والروس والايرانيين مؤخرا حجم الخلافات مع الولايات المتحدة، فمدفأيف يرى بأن العلاقات الروسية الامريكية هي الاسوأ منذ عهد خروتشوف هذا التصريح لا يعكس فقط سوء العلاقات بين الطرفين وانما الهوية الروسية التي بات المسؤولين الروس يرون روسيا بها، وصرح اردوغان ردا على محاكمة امريكا لتجزئ تركي بسبب تعامله مع ايران بان امريكا ليست العالم ، وكذلك رفض الجنرال سليماني الاطلاع على محتوى رسالة امريكية عبر وسيط، وهذا التحالف وبسبب العلاقات الاثنية والدينية والتاريخية والاقتصادية مع جمهوريات آسيا الوسطى بإمكانه ازالة الخطر الامريكي من تلك المنطقة نهائيا.

هذا التمدد الروسي لم يكن ناجما فقط عن التحسن في الوضع الاقتصادي والعسكري الروسي ، وإنما أيضا بسبب ضعف الرغبة الامريكية في التدخل العسكري بسبب عدم وجود تأييد داخلي امريكي ، هذا العامل الذي حذر برجنسكي من تأثيره على الهيمنة الامريكية على العالم ، وهذا ما ظهر واضحا في الحملة الانتخابية لترامب بتركيزه على سياسة امريكا اولا والتي كانت سبب في وصوله لسلطة لا يمكن لأي دولة في المدى القريب ان تصل الى مستوى امريكا من العالمية، او حتى لتحالفات، سوا على المستوى الاقتصادي او العسكري، انما نحن اما نشوء دول و تحالفات اقليمية قادرة على حماية مصالحها ضمن محيطها الحيوي سوف يؤدي تدريجيا لاضعاف الهيمنة الامريكية على العالم، والتي سوف يكون من نتائجه القريبة بحسب رأي صموئيل هنكتون وبريجنسكي والبروفسور جيمس يورك الفوضى على مستوى العالم فنحن نعيش الان بداية عصر ما بعد الهيمنة الامريكية المطلقة .

موسكو وواشنطن: هل بدأ اهتزاز القطب الواحد الأميركي للعالم؟

- محمد سيد رصاص - جريدة "الاتحاد"- الاثنين 18 كانون أول 2017

كانت ثورة أكتوبر 1917 الروسية حدثاً طبع القرن العشرين بطابعه في الصد والمع. أيضاً فإن انهيار الاتحاد السوفيتي وتفككه عام 1991 بعد قليل من هزيمة موسكو أمام واشنطن قد حددتا معلم ومسار القرن الجديد، الذي كانت من أهم ملامحه تحول الولايات المتحدة الأمريكية إلى القطب الواحد للعالم في مرحلة مابعد 1989. مارست واشنطن القطبية الأحادية للعالم في أحداث مفصلية: (حرب الخليج 1991- حرب كوسوفو 1999-غزو أفغانستان 2001- غزو العراق 2003). مارست موسكو مع باريس وبرلين تعويقات للأميركان في الحدث العراقي منع واشنطن من استخدام مجلس مجلس الأمن منصة لتشريع الغزو، بخلاف ما كان عليه الحال في حرب 1991، ولكن ذلك لم يكن عائقاً حقيقياً للأميركان وسرعان ما عاد مجلس الأمن ليقوم بتشريع الاحتلال الأميركي للعراق في الشهر التالي لسقوط بغداد. في العقوبات ضد ايران بين عامي 2006 و2010 التي اتخذتها مجلس الأمن بسبب برنامج طهران النووي لم يكن الكرملين معيناً للبيت الأبيض.

عانت روسيا عقب الانهيار السوفيتي من فترة من الضعف لم تشهدها خلال قرون خمسة مضت، حيث تمدد الأميركيان إلى العديد من الجمهوريات السوفيتية السابقة، ومن ثم بدأت التصدعات في بناء الاتحاد الروسي ابتداءً من الحرب الشيشانية عام 1994. كانت الضربة الكبرى لموسكو في ابعاد أوكرانيا منذ عام 2004 عن المدار الروسي باتجاه الغرب عبر "الثورة البرتقالية" وهو ماتزامن مع حدث مماثل في جيورجيا.منذ تولي فلاديمير بوتين الرئاسة الروسية في أول يوم من عام 2000من بورييس يلتسيين كان واضحاً أن برنامجه هو وقف التشققات في البناء الروسي عبر إنهاء الحرب الشيشانية بوسائل كانت بالغة القسوة ثم الانتقال نحو "الحديقة الخلفية القديمة" في الجمهوريات السوفيتية السابقة قبل الولوج في النقطة الثالثة وهي :العالم.

بدأت معلم الاستيقاظ الروسي في يوم 8/8/2008 مع الحرب الروسية- الجورجية في عام 2008 أولى بوتين امدادات الغاز عن أوكرانيا، مع بوادر انشقاقات في صف "الثورة البرتقالية"، قبل أن يصل عام 2010 رئيس موال لموسكو للرئاسة الأوكرانية عبر الانتخابات. في هذه الفترة استطاعت موسكو أن تعيد نفوذها لجمهوريات سوفياتية سابقة وأن توازن النفوذ الأميركي بها (أذربيجان- تركمانستان- أوزبكستان- قرغيزيا) فيما ظلت كازاخستان وطاجكستان وأرمينيا وبيلاروسيا في حالة عدم الحيدان عن المدار الروسي، بينما انخرطت جمهوريات البلطيق الثلاث (ليتوانيا- لاتفيا- استونيا) في حلف الأطلسي. ظهرت بوادر التحدي الروسي للأميركان عالمياً في حزيران 2009 مع تأسيس مجموعة دول البريكس: روسيا- الصين- الهند- البرازيل (انضمت جنوب إفريقيا عام 2010) التي دعت إلى "عالم متعدد الأقطاب" في ظل نشوب الأزمة المالية- الاقتصادية البداءة في نيويورك منذ آيلول 2008، وفي ظل الفشل الأميركي في العراق. ولكن لم تبدأ المواجهة الروسية مع الأميركيان سوى من خلال الأزمة السورية عبر الفيتو الروسي- الصيني المزدوج في مجلس الأمن يوم 4 تشرين الأول 2011. كان الأميركيان قبل يومين قد أنشأوا تنظيمًا معارضًا سورياً اسمه "المجلس الوطني السوري" بالتحالف مع تركيا، كان يراد منه أن يكون غطاءً محلياً لتدخل عسكري خارجي ينفذه أردوغان كمفاوض مجلس مصطفى عبد الجليل عبر ساركوزي في ليبيا حتى تم اسقاط القذافي من باب العزيزية قبل شهرين. في نيسان 2012 قال لافروف لوفد من هيئة التنسيق السورية المعارضة زار موسكو: "ندفع عن موسكو في دمشق". يبدو أن الكرملين كان يرى يومذاك أن نجاح التحالف بين الأميركيان و(الإخوان المسلمين) في المنطقة العربية سيكون جدول أعماله التالي عند مسلمي الاتحاد الروسي والجمهوريات الإسلامية السوفياتية السابقة برفاق التقارب الروسي- الأميركي منذ اتفاق 7 أيار 2013 في موسكو بين كيري ولافروف مع تخلي واشنطن عن حلفها مع المسلمين الذين بدأوا كموجة بالتراجع والسقوط ابتداءً من انقلاب السيسي على مرسي في 3 يوليو 2013 وبدء تبادل الأميركي- تركي مازالت مفاعيله قائمةً ومع تخلي واشنطن عن برنامج التغيير عبر "الربيع العربي". كان من مظاهر الأمر الأخير التخلّي الأميركي عن المعارضة السورية المسلحة والغطاء الأميركي للدخول العسكري الروسي إلى سوريا منذ يوم 30 آيلول 2015.

لم تعد الأجواء الروسية- الأميركية في عام 2017 كما كانت في مرحلة مابعد 7 أيار 2013: كان سقوط الموصل بيد داعش بيوم 10 حزيران 2014 قد عزز التقارب الأميركي- الروسي مع افتتاح واشنطن والأوروبيين بأولوية مكافحة الإرهاب والاستقالة من مشروع "التغيير العربي". مع اقتراب داعش من الأفول بدأت تظهر التباينات والخلافات الأميركية- الروسية تجاه شرق أوسط مابعد داعش: إدارة ترامب ترى (إيران أولاً) وتنجح نحو تشكيل تحالف دولي- إقليمي إما لاقتلاع النفوذ الإيراني الإقليمي أو لتحجيمه.

كل الضغط الأميركي والإسرائيلي منذ صيف 2017 على موسكو هو من أجل دفعها للمساهمة في ذلك ضد طهران عبر الساحة السورية. لم يستجب بوتين الذي يبدو أصبح، بعد المكاسب الروسية في سوريا، يرى نفسه قادرًا على العمل بمعدل عن التنسيق مع واشنطن في الشرق الأوسط. لا يمكن قراءة مؤتمر قمة سوتشي الثالثة بين بوتين وروحاني وأردوغان إلا بوصفه تعبيراً عن تشكيل تحالف دولي- إقليمي جديد وإذا قرأنا سورياً ماتعنيه (سوتشي) فإن طرح مؤتمر سوتشي كمسار سياسي لحل الأزمة السورية يعني انهيار التفاهم الأميركي- الروسي البداء في 7 أيار 2013 بموسكو الذي أنتج مسار جنيف بداعٍ من جنيف 2 عام 2014 وجنيف 3 عام 2016 وما تلاهما من جنيفات لم يخف الأميركيان معارضتهم لمؤتمر سوتشي، وكانت تصريحات ماتيس حولبقاء العسكري الأميركي في سوريا في شرق الفرات السوري يعني اعلاناً عن اللقاهم الأميركي- الروسي حول سوريا، وبالتالي عن انهيار فرص التسوية السورية، وهو ما يbedo مترافقاً مع اللاتسوية في فلسطين التي يعنيها قرار ترامب الأخير تجاه القدس واللاتسوية في اليمن التي لو كانت قريبة تسويتها فإن الحوثيين ما كانوا ليقتلوا على عبدالله صالح وما كان ليحصل تقارب الرياض وأبوظبي اللاحق مع (الإخوان المسلمين) في اليمن.

يدل السلوك الروسي في الشرق الأوسط، والذي يجب أن نقرأ في إطاره الاتفاques الاقتصادية الكبرى الروسية مع مصر وتركيا ، على أن هناك تهراً في وضعية القطب الواحد الأميركي للعالم على الأقل في منطقة وصفها الجنرال ديغول بأنها "قلب العالم": الصين التي تمتد غرباً ، عبر استئجار مرفأين في باكستان وميانمار ووصلهما بشبكات طرق وسكك حديد وأنباب نفط وغاز عملاقة بالبر الصيني من أجل تقاديم المرور الصيني بمضيق مالاقا حيث القواعد الأميركية عند ذلك مضيق الوائل بين المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي والمحيط الهادئ، تقول حركتها بأن هناك تهراً في وضعية الأميركيان في آسيا وبأن هناك اتجاهها صينياً لتطويق الهند التي تظل ترى الولايات المتحدة حليفها الرئيسي وليس دول مجموعة البريكس. التقارب الصينية - الروسية، وتلك الإيرانية، تدل على فشل واشنطن التي كانت تريد من تقاربها مع موسكو أساساً بعادها عن كل من بكين وطهران.

الكيف القانوني للاتفاقيات والمعاهدات المبرمة من الإدارات والأقاليم المحلية

في البداية لابد من تعريف المعاهدات حسب قواعد القانون الدولي، فقواعد القانون الدولي العام تنظم العلاقات بين الدول والمنظمات الدولية، كما تناطب قواعد هذا القانون أيضاً "الأفراد مباشرة"، أو حكام الدول، وتعتبر المعاهدات الدولية من أهم مصادر القانون الدولي العام، فالدول والمنظمات الدولية هي فقط من يحق لها إبرام المعاهدات الدولية، وهذا الحق لا يعطى لغيرهما، وأيضاً "الدولة التي يحق لها إبرام المعاهدة يجب أن تكون كاملة السيادة على كامل أراضيها، فالمعاهدات هي أهم مظاهر هذه السيادة، وقد أكدت اتفاقية فيينا لعام 1969 على هذا الأمر، فأعتبرت المادة السادسة من هذه الاتفاقية، والمادة السادسة من اتفاقية فيينا لعام 1986 المتعلقة بالاتفاقيات التي توقعها الدول والمنظمات الدولية، أو المنظمات الدولية فيما بينها. ما سبق يؤكد أن القانون الدولي لم يعط لأي ولاية في إتحاد فرالي أي حق في إبرام المعاهدات والاتفاقيات والتلويع عليها، باعتبار أن هذه الولايات لا تكتسب صفة الدولة كاملة السيادة بحسب قواعد القانون الدولي وهذا الرأي ثابت في القانون الدولي العام مع وجود بعض الاستثناءات عندما سمح دستور الإتحاد السوفييتي لعام 1977 البعض الجمهوريات المكونة للإتحاد الفدرالي بحق إبرام المعاهدات، وذلك لأسباب سياسية ومن هذه الجمهوريات أوكرانيا وروسيا البيضاء، وهناك بعض دساتير الدول الإتحادية نصت على عدم أهلية الولايات والمقاطعات المكونة للدولة الإتحادية لإبرام المعاهدات الدولية. ففي المادة الأولى، الفقرة العاشرة من دستور الولايات المتحدة الأمريكية نصت على : لا يجوز لأي ولاية أن تعدد أي معاهدة أو تدخل في حلف أو إتحاد.... ، أما علاقة الكانتونات السويسرية بالحكومة المركزية فهي تتضمن على قدر كبير من اللامركزية، ولكن لا يشمل ذلك الشؤون الخارجية مثل عقد المعاهدات مع الدول الأجنبية أو إرسال أو قبول الدبلوماسيين، والتتمثل في المؤتمرات، حيث يبقى ذلك من اختصاص الحكومة الإتحادية، وهنا تطرح الأسئلة حول مدى أهلية الأقاليم المحلية أو ما يسمى "الإدارية الذاتية" للقيام بإبرام اتفاقيات الاقتصادية أو السياسية أو غيرها من الاتفاقيات أو العقود النفطية مع دول أو شركات تتبع لدول أجنبية؟..... إذا تم تطبيق مفهوم المعاهدات الدولية على هذه الاتفاقيات أو العقود تبين لنا أنها لا تدخل ضمن مفهوم المعاهدات الدولية، وإنما تمت بين أطراف تزعزع نحو الإنفصال عن حكمتها المركزية، بإستغلال النزاعات الحاصلة في بلدانها وفرض الأمر الواقع فتقوم بإبرام ما يسمى العقود الدولية مع شركات أجنبية تابعة لدول أخرى، وهذه العقود لا يمكن أن تقع ضمن نظام القواعد الدولية المتعارف عليها ، ويمكن أن تدرج هذه العقود ضمن قواعد القانون الدولي الخاص. يمكن أن نعطي أمثلة على هذا النوع من العقود ما حصل فيإقليم كردستان العراق عندما قام هذا الإقليم بإبرام العقود النفطية مع شركات أجنبية وعلى الأخص الشركات الأمريكية <أوكسون موبيل>، في مخالفة صريحة لنصوص الدستور العراقي الإتحادي، حيث أكدت المادة 111 من هذا الدستور على : ان النفط والغاز هو ملك للشعب العراقي في كل المحافظات والأقاليم

و جاء في المادة 112 من نفس الدستور : ١- تقوم الحكومة الإتحادية بإدارة النفط والغاز المستخرج من الحقول مع حكومات الأقاليم والمحافظات المنتجة ، على أن توزع وارادتها بشكل منصف يؤمن التنمية المتنازية للمناطق المختلفة من البلاد، وينظم ذلك بقانون .

2- تقوم الحكومة الاتحادية وحكومات الأقاليم والمحافظات المنتجة معاً برسم السياسات الإستراتيجية اللازمة لتطوير ثروة النفط والغاز . وهذه المواد السابقة من الدستور العراقي أوضحت بشكل لا لبس فيه عدم أحقيـة أي مـحافظة أو إقـالـيم محلـي إـسـتـخـراـجـ النفـطـ أوـ الغـازـ اوـ اـدارـتهـ دونـ التـنـسيـقـ معـ الـحـكـومـةـ المـرـكـزـيـةـ،ـ والأـولـىـ الأـيـدـيـةـ يـحقـ لـهـذـاـ الإـلـقـالـيمـ إـبـرـامـ عـقـودـ يـشـمـلـ هـذـاـ الـنـفـطـ وـالـغـازـ مـعـ دـوـلـ أوـ شـرـكـاتـ أـجـنبـيـةـ،ـ وقدـ تـشـارـ أـيـضـاـ مـسـأـلـةـ طـبـيـعـةـ الـمـسـؤـلـيـةـ فـيـ حـالـ نـشـوبـ نـزـاعـ بـسـبـبـ إـخـلـاـلـ أـحـدـ الـأـطـرـافـ بـإـلـتـرـامـاتـهـ،ـ وـهـذـهـ الـعـقـودـ لـاـ تـحـكـمـهـاـ قـوـاـعـدـ الـقـانـونـ الدـوـلـيـ الـعـامـ ،ـ وـإـنـماـ تـخـضـعـ لـقـوـاـعـدـ الـقـانـونـ الدـوـلـيـ الـخـاصـ مـاـ يـنـفيـ الـمـسـؤـلـيـةـ الدـوـلـيـةـ وـمـاـ يـتـرـتـبـ عـلـىـ ذـلـكـ مـنـ نـتـائـجـ سـلـبـيـةـ عـلـىـ الـأـطـرـافـ الـمـوـقـعـةـ عـلـىـهـ،ـ وـيـرـىـ بـعـضـ الـفـقـهـ الـدـوـلـيـ أـنـ هـذـهـ الـعـقـودـ أـصـبـحـتـ تـأـخـذـ فـيـ الـأـوـنـةـ الـأـخـيـرـةـ بـعـضـ قـوـاـعـدـ الـقـانـونـ الدـوـلـيـ الـعـامـ،ـ وـمـنـهـ الـأـخـذـ بـنـظـرـيـةـ تـغـيـرـ الـظـرـوفـ،ـ وـبـمـقـضـاـهـاـ أـصـبـحـ يـجـوزـ لـأـحـدـ الـمـتـعـاقـدـيـنـ إـلـغـاءـ مـنـ الـإـلـتـزـامـ النـاجـمـ عـنـ الـعـقـدـ أـوـ تـعـديـلـهـ أـوـ إـنـهـائـهـ،ـ لـأـنـهـ لـمـ يـعـدـ مـنـ مـصـلـحـتـهـ نـتـيـجـةـ لـتـغـيـرـ الـظـرـوفـ.ـ مـاـ جـعـلـ الـخـارـجـيـةـ الـأـمـرـيـكـيـةـ تـقـدـمـ تـحـذـيرـهاـ لـشـرـكـاتـ الـنـفـطـ الـأـمـرـيـكـيـةـ وـمـنـهـ شـرـكـةـ <ـاوـكسـونـ مـوبـيلـ>ـ بـعـدـ الـمـخـاطـرـ الـقـانـونـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ،ـ بـالـتـوـقـيعـ عـلـىـ عـقـودـ مـعـ أـيـ طـرـفـ فـيـ الـعـرـاقـ دـوـنـ إـقـرـارـ إـتـقـاقـ وـطـنـيـ مـعـ حـكـومـةـ بـغـدـادـ فـيـ هـذـاـ الشـأنـ.ـ وـإـذـاـ مـاـ أـرـدـنـاـ إـسـقـاطـ التـحـلـيلـ السـابـقـ فـيـ هـذـهـ الـدـرـاسـةـ عـلـىـ الـوـاقـعـ السـوـرـيـ،ـ فـهـوـ قـدـ يـكـوـنـ مـشـابـهـاـ"ـلـمـ يـحـصـلـ فـيـ الـعـرـاقـ،ـ وـإـنـ لـمـ يـكـنـ أـخـطـرـ بـكـثـيرـ،ـ وـخـاصـةـ بـعـدـ قـيـامـ مـاـ يـسـمـيـ"ـبـالـإـدـارـةـ الـذـاتـيـةـ"ـ الـتـيـ تـشـكـلتـ إـثرـ سـيـطـرـةـ "ـوـحدـاتـ حـمـاـيـةـ الـشـعـبـ الـكـرـديـ"ـ عـلـىـ الـمـنـاطـقـ الـشـرـقـيـةـ مـنـ الـبـلـادـ بـسـبـبـ ضـعـفـ الـحـكـومـةـ الـمـرـكـزـيـةـ فـيـ هـذـهـ الـمـنـاطـقـ بـإـسـتـغـالـ النـزـاعـ السـوـرـيـ لـفـرـضـ سـيـاسـةـ الـأـمـرـ الـوـاقـعـ بـدـعـمـ أـمـرـيـكيـ سـافـرـ،ـ بـغـيـةـ السـيـطـرـةـ عـلـىـ مـقـدـراتـ هـذـهـ الـمـنـاطـقـ الـتـيـ تـعـتـبـرـ ذـيـ أـهـمـيـةـ إـسـترـاتـيـجـيـةـ لـلـدـوـلـةـ السـوـرـيـةـ وـلـلـشـعـبـ السـوـرـيـ،ـ وـقـيـامـ الـمـشـرـفـينـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـنـاطـقـ بـعـقـدـ الـإـلـقـاـقـيـاتـ،ـ أـوـ إـبـرـامـ الـعـقـودـاـ لـنـفـطـيـةـ مـعـ شـرـكـاتـ أـجـنبـيـةـ أـوـ دـوـلـ،ـ وـإـقـامـةـ الـقـوـاـعـدـ الـعـسـكـرـيـةـ لـدـوـلـ أـجـنبـيـةـ مـخـتـلـفـةـ،ـ هـدـفـ الـأـسـاسـيـ فـرـضـ الـأـمـرـ الـوـاقـعـ وـالـتـمـكـينـ مـنـ إـلـنـفـسـالـ دـوـنـ أـخـذـ رـأـيـ أـغـلـيـةـ الـشـعـبـ السـوـرـيـ فـيـ هـذـاـ الـأـمـرـ فـيـ ظـرـوفـ طـبـيـعـةـ بـعـدـ التـوـصـلـ لـتـسـوـيـةـ نـهـائـيـةـ لـلـأـزـمـةـ السـوـرـيـةـ،ـ وـهـذـهـ التـصـرـفـاتـ لـاـ تـجـدـ مـسـتـدـلـاـتـ لـهـاـ لـافـيـ أـعـرـافـ أـوـ فـقـهـ أـوـ قـوـاـعـدـ الـقـانـونـ الدـوـلـيـ الـعـامـ.

- رحيل مناضلة -

في أوائل شهر كانون ثاني 2018 توفيت في كندا الدكتورة أسماء رشيد الفيصل بعيداً عن بلدتها سوريا و مدینتها حمص .

العامة على الحزب التي بدأت في السابع من الشهر المذكور والتي شملت قيادات و كوادر وأعضاء الحزب وكان من ضمنهم الأمين الأول للحزب الذي اعتقل بعدها بأسابيع في يوم 28 من الشهر المذكور. خرجت الدكتورة أسماء من السجن بعد عامين ونصف، وكانت مثال الأم في الاعتناء ببناتها أثناء غياب الأب في المعقل لثمانية عشر عاماً، ومثال للزوجة التي تعنت بزوجها لماتم السماح بزيارته في المعقل بعد عشر سنوات من التغيب لمرة واحدة كل سنة.

ما زالت تذكرها مدينة حمص ومحافظتها في سيرتها الطيبة كطبيبة في المستشفى الوطني وفي الهلال الأحمر، كما يذكرها الشيوخون وقيادات وأعضاء كافة القوى السياسية المعارضة الذين استضافت المئات منهم في بيتها أثناء زيارتهم للأمين الأول للحزب كمثال للكرم والطيبة. الحزب الشيوعي السوري - المكتب السياسي يعزي ذوي الفقيدة وكل المعارضة السورية.

خواطر بصدور مراجعات لمسيرة الحراك السوري المعارض

الدكتور جون نسطة

في بداية ما أسماه برنامج حزبنا بـ "الحراك الاجتماعي المعارض الواسع" في العام ٢٠١١ جرى لقاء ثقافي في برلين ضم عدداً كبيراً من الجالية العربية وبأغلبية فلسطينية، وجاء الكلام، بطبيعة الحال، حول موضوع الساعة، أعني الحراك السوري ضد نظام الاستبداد. وكانت معظم المداخلات تتضمن الكثير من الريبة والشك والتشكك حيال ما يجري على الساحة السورية وتخوفات على القضية الفلسطينية ومصائر دعمها من قبل النظام السوري، الذي كان يدعى المقاومة والممانعة. في هذا الجو المحموم وفقت وأخذت الكلام مخاطباً الجمع قائلاً: (أنتم جميعاً تعرفون الشعب السوري الذي دافع منذ عشرات السنين عن القضایا العربية جميعها وفي الصدر منها القضية المركزية للعرب، قضية الشعب الفلسطيني، التي يعتبرها قضيته أيضاً، وقدم في سبيلها أغلى التضحيات. هذا الشعب يا إخوتي إن انتصر سيكون في طليعة القوى في الدفاع عن الشعب الفلسطيني وقضایاه العادلة، لأن أيضاً قضيتنا واحدة فنحن في سوريا نعاني منذ حرب ٦٧ من الاحتلال جزء غالٍ من وطننا هو الجولان الحبيب. فأنا لا أرى بأي شكل من الأشكال سبباً في دواعي تخوفاتكم وشكوككم، بل العكس تماماً، وأنواع دعمكم ومناصرتكم للسوريين المعارضين الذين نزلوا للشارع في مظاهرات سلمية، حرضاً منكم على قضيتكم وقضيتنا فلسطين، الأرض المقدسة).

بالواقع هذا الذي تكلمت به كان يعبر عن مشاعر أغلبية الشعب السوري، الذي خرج إلى الشوارع مطالبًا بحقه بنيل الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية، واستلام مقادير حاضره ومستقبله، ليتابع مسيرته التاريخية في بناء دولة القانون والديمقراطية، ومواكبة قطار الحداثة والتقدم، على طريق تحرير أراضيه بكل الوسائل المشروعة، والتضامن مع أشقاءه العرب وفي الطليعة شعبنا العربي في فلسطين كل فلسطين.

وتبعاً لأحداث الحراك السوري المعارض بكل عفويته وعدم وجود قيادة داخلية له، وعدم ظهور برنامج متكامل له، مع استخدام النظام كل الأساليب في القمع، وظهور معارضة أغلبها تعيش في الخارج سلمت أمور توجهاتها إلى بلدان عديدة عربية رجعية لا تؤمن بالديمقراطية ولا تناصرها، وأجنبية لاترغب

للشعب السوري نيل الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية وسعيه لتحرير أراضيه ومعاداة إسرائيل. وهذا الأمر شكل بذاته سرقة صارخة لقضية الحراك السوري المعارض من أيدي رجالاته المخلصين.

وكنتيجة لهذا الخطأ القاتل، بدأت الأمور تسير باتجاه ما كان يتخوف منه الكثيرون وما نبهت إليه شعارات هيئة التنسيق الوطنية لقوى التغيير الديمقراطي من مخاطر الطائفية واللجوء إلى العنف والتسلیح وطلب أو الاستعانة بالتدخل الخارجي. وهذا الأمر شكل السرقة الثانية للحرك المعارض واختطاف مقاليده وبدء الثورة المضادة.

فيبدلاً من أن تتجه قيادات الحراك إلى مخاطبة الجماهير الشعبية العربية ومنظوماتها الوطنية والقومية والقديمية والتحررية وبعض الدول العربية، طالبة دعمها وتأييدها، بعد شرح وتوضيح أهدافها الوطنية التحررية الديمقراطية بدأت شعارات البعض تهاجم وتشتم هذه القوى، وتغازل إسرائيل حتى إن بعض أشخاصها مثل الدكتور كمال اللبواني ربما غيره كفهد المصري قاموا بزيارة لها، دون أن تلقى هذه الأفعال المشينة أية إدانة وتجریح يذكر من قبل المعارضة الخارجية في (الائتلاف الوطني) وغيره.

وهناك أصوات كانت تتصح قوى المعارضة الخارجية بالتوافق مع روسيا وإيران في البدايات، لتطمئنهم بأن انتصار المعارضة لا يعني معاداتهم وعدم مراعاة مصالحهم، والوقوف مع الدول الرجعية والغربية ضدهم.

في عام 2011 كان برهان غليون في زيارتي بيته في ألمانيا وصرح أكثر من مرة أمامي بأنه في حال الانتصار فإن أول عمل سيقوم به هو زيارة صداقه لإيران لأن إيران ليست عدوتنا على حسب ما قال في حينه.

إن القيادة الخارجية للمعارضة تخلت عن الالتصاق بشعبها وجماهيرها ومحيطها الشعبي العربي وألقت بجميع بيضها في سلة الخارج المعادي بطبيعته لأهداف الشعب السوري التي تدعى تمثيله وتنطبع لقياداته. بل راحت، وربما لأنزال تراهن على التدخل الخارجي العسكري.

لقد بقىت هيئة التنسيق الوطنية لقوى التغيير الديمقراطي تقول لسنوات طويلة شبه وحيدة بالحل السياسي التفاوضي للأزمة السورية. بعد استعصاء الحل العسكري واستحالته، بدأت قوى واقعية في (الائتلاف الوطني) تميل إلى الإعتراف بالواقع وتقرب رويداً إلى الحوار مع هيئة التنسيق الوطنية، فكان لقاء باريس في شباط 2015 والأهم لقاء بروكسل في تموز ٢٠١٥ بدعوة من الاتحاد الأوروبي والتوافق على الحل السياسي وإدانة الإرهاب لأول مرة في البيان المشترك بين الطرفين.

ثم جاء مؤتمر الرياض في نهاية العام ٢٠١٥ وجاء في بيانه الختامي بأن الحل السياسي هو الحل الأفضل، وبعد هذا المؤتمر بدأت مرحلة جديدة من المفاوضات في جنيف وبضغط نسبي من الجانب الروسي.

إن تلقي المفاوضات، لا بل فشلها إلى حد بعيد، يعود من وجة نظري إلى سبب واحد رئيس هو عدم توفر القناعة، لدى الطرفين، بأن لا أحد منهما قد انتصر أو سينتصر على الآخر. بل أنهما يتوهمان بالنصر العتيد. وكلا الطرفان يفرضان شروطاً على الآخر، شروط المنتصر، وهو ما يجعل من المستحيل نجاح المفاوضات في ظل هذا الوهم المريض.

جاء قرار الرئيس الأميركي ترمب بشأن نقل السفارة الأمريكية إلى القدس من تل أبيب، واعتراف الحكومة الأمريكية وبالتالي بالقدس كعاصمة للدولة اليهودية، ضربة موجعة لأصدقاء أميركا وحلفاؤها وعملاءها في المنطقة العربية وعرّتهم أمام الشارع العربي الغاضب، وبينت للجماهير العربية بأن الإمبريالية الأمريكية وإسرائيل هما أعداء العرب الحقيقيين، بعكس ما حاولت القوى الرجعية العربية ودولها، على مدى عدة عقود من السنين، إقناع الناس بأن عدونا الرئيس هي الدولة الإيرانية، وبأن إسرائيل هي حليفنا. لقد انقلب السحر على الساحر.

إن الخطوة الأمريكية العدوانية والمخالفة للقوانين والقرارات الدولية، يمكن وصفها بالغبية أيضاً لأنها وحدت الشارع العربي لأول مرة منذ سنين طويلة، وأظهرت بأن الاصطفافات الحالية في العالم العربي ليست طبيعية ولا عقلانية وعلى الأغلب ليست دائمة. فهل نحن على أبواب تحالفات سياسية جديدة تعيد الأمور إلى نصابها؟

تعريف "الاحتلال"

مقدمة: لما كان مصطلح الاحتلال يتدخل في بعض جوانبه مع الكثير من المصطلحات، ويثير التباساً عند الكثيرين، فكان لابد قبل الدخول في تعريف الاحتلال أعطاء لمحة عن هذه المصطلحات.

1- الفتح - هو إخضاع دولة لإقليم دولة أخرى كلاً أو بعضاً، بواسطة القوات المسلحة للدولة الفاتحة وضمها إلى إقليمها، ويكون الفتح بعد إنتهاء الأعمال الحربية، ويتم بإعلان من جانب الدولة الفاتحة، بضم الإقليم المفتوح، وبلغ الإعلان لسائر الدول ، بالطرق الدبلوماسية، تمهدًا لاعترافها بالضم صراحةً أو ضمناً، ولكن الفتح قد أصبح غير مشروعًا في عهد عصبة الأمم المتحدة وأيضاً في ميثاق الأمم المتحدة .

2- السيادة الناقصة: وهذا المصطلح ينطبق على الدول التي لا تتمتع بكل إختصاصات الدولة الأساسية، وذلك بسبب تدخل دولة أجنبية في شؤونها، و مباشرة لبعض إختصاصاتها، فتصبح الدولة ذات السيادة الناقصة في حالة تبعية، أو خضوع للدولة أو الدول المتدخلة، غير أن الدول ذات السيادة الناقصة تتمتع بوصف الدولة، أي أنها ذات حقوق وواجبات يقرها القانون الدولي ، وإن كانت شخصيتها الدولية غير كاملة، وهي تختلف قانوناً عن المستعمرات لأن المستعمرات تعد جزءاً من إقليم الدولة المستعمرة، ولاتتمتع بأي كيان دولي، والسيادة الناقصة قد تأخذ عدة أشكال منها:

رابطة بين دولتين، متبرعة وتابعة، وكانت تتم بموجب نص داخلي موقوت بزمن معين وتصبح الدولة التابعة في نهايتها كاملة الإستقلال أو تلحق بها بالدولة المتبرعة. وكانت الدولة المتبرعة تتمتع بالإختصاص الخارجي، وتجعل الدولة التابعة خاضعة للمعاهدات السياسية، والإقتصادية التي تعقدها، وتفرض عليها ضريبة سنوية، بحيث تسمح لها التصرف تحت رقابتها في الشؤون الداخلية ، كالتشريع والتجنيد وسك النقود والمواصلات .. الخ ، أمثلة على هذا النوع من التبعية {تبعية مصر للباب العالي بين عامي 1840 و 1882، وبطبيعة صربيا ورومانيا والجبل الأسود للإمبراطورية العثمانية منذ معاهدة باريس عام 1856 حتى معاهدة برلين عام 1878}.

ب - الحماية - وهي علاقة قانونية تنتج عن معاهدة دولية تضع بمقتضاها دولة ضعيفة تسمى الدولة المحمية نفسها تحت حماية الدولة الحامية ، وتنلزم الدولة الحامية بالدفاع عن الدولة المحمية مقابل حق الإشراف على الشؤون الخارجية للدولة المحمية و التدخل في إدارة إقليم تلك الدولة. والحماية قد تكون نتيجة للضغط أو الاحتلال العسكري المباشر من قبل الدولة الحامية، والأمثلة على الحماية الدولية {سان مارينو تخضع لحماية إيطاليا نتيجة لمعاهدة أبرمت بين الدولتين عام 1898 ، وإمارة موناكو تخضع لحماية فرنسا بموجب معاهدة 17 أيار عام 1948} ، وتنتهي الحماية بانتهاء الرابطة التي تجمع الدول الحامية والدول المحمية كما حصل بالنسبة لمصر سنة 1922 وتونس ومراكش ودول الهند الصينية لتصبح دولاً مستقلة.

ج - الإنذاب - على إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى قامت الدول المنتصرة في هذه الحرب بفرض نفوذها على الأقاليم التابعة لتركيا وألمانيا المهزومتين، حيث عمدت هذه الدول إلى وضع صياغة قانونية لتبرير هذا الشكل من الإستعمار ظهر ما يسمى نظام الإنذاب ونصت عليه المادة 22 من صك عصبة الأمم المتحدة حيث جاء في هذه المادة : "نظراً لأن هذه البلاد مسكونة بشعوب غير أهل أن تحكم نفسها بنفسها في الظروف الحرجية التي يجتازها العالم، فإنه يجب وضعها تحت إشراف بعض الدول المتقدمة، التي يمكنها موقعها الجغرافي وتجاربها الإنذاب على تلك البلاد تحت رقابة المنظمة ، فقرر وجوب تقديم تقرير سنوي لمجلس العصبة، ويحيل مجلس العصبة هذا التقرير إلى لجنة خاصة تسمى لجنة الإنذابات الدولية، وهي تقوم تقوم بدراسةه وتبيان المخالفات التي تكون قد ارتكبتها الدول المنتسبة وتنصي على ما تراه في هذا الصدد .

واعتبرت المادة الثانية والعشرون من صك العصبة أن الإقليم الواقع تحت الإنذاب يحتفظ بكيانه المنفصل ولا يعد جزءاً من الدولة المنتسبة، فلا يخضع لسيادتها ، ولا يت俊س سكانه بجنسية تلك الدولة، إلا إذا خذلواها بمطلق إرادتهم، وبولادة الأمم المتحدة وميثاقها عام 1945 انتهت أنظمة الإنذاب، إما بمنح الدول المنتدب عليها الاستقلال بعد كفاح طويل، أو بوضع الأقاليم المنتسبة تحت نظام الوصاية عملاً من المادة 78 من ميثاق الأمم المتحدة.

د - الوصاية: قام الحلفاء ببحث مصير الأقاليم التي كانت موضوعة تحت الإنذاب ، والأقاليم المنتسبة من دول المحور بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، فوضع الحلفاء للأقاليم الموضوعة تحت الإنذاب نظام الوصاية، ووضع الأقاليم الأخرى تحت ما يسمى نظام الأقاليم غير المتمتع بالحكم الذاتي .

و- الارتباط بمعاهدات غير متكافلة: ويتجلى ذلك في إرتباط دولة من الدول بمعاهدة مع دولة أخرى، أقوى نفوذاً" بحيث تصبح الدولة الأولى في وضع سياسي وقانوني، يؤدي إلى حرمانها من بعض مظاهر سيادتها، الخارجية ، أو اختصاصها الداخلي لصالح الدولة الأقوى. وأمثلة عن ذلك} هزيمة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى عبر معاهدة فرساي وفي الحرب العالمية الثانية، وتوقيعها معاهدة إسلام ، تقبل فيها مكرهة بشرط تحد من سيادتها } .

ك - الخضوع للنفوذ: هو خضوع دولة من الدول للنفوذ السياسي، أو الاقتصادي لدولة أقوى منها ، مما يجعلها تابعة لهذه الدولة، فتكتسب سيادتها بقيود ثقيلة، وهذا النوع من النفوذ منتشر كثيراً" في العلاقات الدولية فيما سبق والآن { النفوذ الصريح للولايات المتحدة الأمريكية في مختلف بلدان العالم من أمريكا اللاتينية إلى عالمنا العربي، وأيضا النفوذ الذي كان يفرضه الاتحاد السوفييتي السابق على البلدان التي تتبع حلف وارسو، وتدخله العسكري في تشيكوسلوفاكيا عام 1968 لمنع هذا البلد من الخروج عن خط سياسي اخترته ما يسمى دول المعسكر الإشتراكي في ذلك الحين}.

تعريف الاحتلال : يعرف الاحتلال بأنه الوضع الذي ينتج عن إحتلال جيش دولة ما ، الأرضي التي تتبع لدولة أخرى بالقوة العسكرية، وما ينتج عن ذلك من حرمانها الدولة التي تتعرض للإحتلال لسلطتها الشرعية للبلاد أو للمنطقة المحتلة منها، فتقوم الدولة الغازية المهيمنة على إدارة الأرضي المحتلة بدور السلطتين التشريعية والتنفيذية لضمان مصالحها الخاصة، وخلق أوضاع تمكناها من السيطرة على ثروات الدولة الموضوعة تحت الاحتلال ، وقد تضطر دولة الاحتلال أحياناً من مراعاة بعض الحقوق الوطنية للأفراد وحقوق الملكية، ودائماً" تعتمد دولة الاحتلال على القوة العسكرية والعداء لمواطني الدولة الواقعة تحت الاحتلال، وأمثلة عن الإحتلالات كثيرة منها} إحتلال الولايات المتحدة الأمريكية لفيتنام وكمبوديا، الاحتلال البريطاني والفرنسي لمعظم الأرضي العربي في القرن الماضي، والإحتلال الصهيوني لفلسطين في أربعينيات القرن الماضي والذي ما زال مستمراً" إلى الآن وتحوله إلى إحتلال إسائيلي وأمثلة كثيرة أخرى} ، ولا ينطبق هذا التعريف على الحالات التي تكون فيها

القوات العسكرية متمركزة فوق أرض محيدة أو صديقة، وهي حالات يستبدل فيها عنصر العداء بعنصر الرضا والقبول.

وقد مر ت مراحل تاريخية حتى وصل مفهوم الاحتلال الى ما هو متعارف عليه الان في القانون الدولي ، فكانت اول المعاهدات الدولية التي فرضت على اطرافها الحد الأدنى من الحقوق في المناطق المحتلة هي معاهدة لاهاي عام 1907 ، ومن ثم معاهدتي جنيف 1929 وعام 1949، وتنص المادة 42 من لائحة لاهاي على أن "تعتبر أرض الدولة محتلة حين تكون تحت السلطة الفعلية لجيش العدو ، ولا يشمل الاحتلال سوى الأرضي التي يمكن أن تمارس فيها هذه السلطة بعد قيامها". وجاء في المادة الثانية المشتركة من إتفاقيات جنيف الأربع لعام 1949 على "ان هذه الإتفاقيات تسري على أرض يتم إحتلالها أثناء عمليات عدائية دولية، كما تسري أيضاً على الحالات التي لا يواجه فيها إحتلال أرض دولة (ما) أي مقاومة مسلحة".

وينظم ميثاق الأمم المتحدة الاحتلال ويعتبر ان قانون الاحتلال واجب التطبيق ، سواء اعتبر شرعاً أم لا. وإن ترافقه القانون الدولي أنه يجب توفر ثلاث عناصر لقيام الاحتلال العربي

1- قيام حالة الحرب أو نزاع مسلح بين قوات دولتين أو أكثر

2- قيام حالة إحتلال فعلية تحتل فيها قوات مسلحة أجنبية أراضي دولة أخرى، وتضعها تحت سيطرتها وتشل قدرتها على المقاومة وأسكات فاعليتها ، والإحتلال يظل وضع مؤقت غير دائم كونه مرحلة من مراحل الحرب ، في إنتظار نشوب القتال من جديد، أو إنهاء حالة الحرب والإنسحاب من الأرضي المحتلة.

3- أن يكون الاحتلال مؤثراً: يجب أن تسيطر قوات الاحتلال على الأرضي التي غزتها ، ويوقف المقاومة المسلحة فيها، وتنمك من حفظ الأمن والنظام في الأرضي المحتلة، وبالتالي عند توفر هذه الشروط الثلاث تسرى أحكام قانون الإحتلال العربي.

الاحتلال وتطبيق القانون الدولي : اعتبرت المادة السادسة من إتفاقية جنيف الرابعة لعام 1949 التي تعمل على حماية المدنيين وقت الحرب أن هذه الإتفاقية يوقف تطبيقها في الأرضي المحتلة بعد عام واحد من إنتهاء العمليات الحربية بوجه عام ، ومع ذلك تلتزم دولة الاحتلال باحکام المواد التالية من هذه الإتفاقية من 1 إلى 12 - م 27 - م 29 إلى م 34 - م 47 - م 49 - م 51 - م 52 - م 53 - م 59 من م 61 إلى الماده 77 - م 143 . وذلك طوال مدة الاحتلال، ما دامت هذه الدولة تمارس وظائف الحكومة في الأرضي المحتلة. وأكدت المادة الثانية من معاهدة جنيف الثالثة لعام 1949 بشأن معاملة أسرى الحرب على أن " بنود هذه الإتفاقية تطبق في جميع حالات الإحتلال الجزئي أو الكلي لإقليم أحد الأطراف السامية المتعاقدة ، حتى لو لم يواجه هذا الاحتلال مقاومة مسلحة" ، بالإضافة إلى الإتفاقيات السابقة هناك البرتوكول الإضافي الأول ، وقواعد القانون الدولي الإنساني العرفي.

مفارقات في إقليم الشرق الأوسط

يلفت النظر في الواقع الإقليمي مفارقات هي أمامنا واقعياً على الأرض:أصدقاء أميركا (ال سعودية- مصر- تركيا- قطر) في حالة خصم وصراع، بينما من يعلنون العداء لأميركا في حالة تقافهم. هناك مفارقات أبعد نجدها في حالتين:غزو واحتلال العراق من قبل الأميركيان عام 2003 كان بتقافهم الأميركي- الإيراني ضد إرادة أنقرة والرياض والقاهرة، وهو متكرر عام 2015 أثناء توقيع الاتفاق النووي الأميركي- الإيراني الذي تم بمعزل عن رضا الرياض ومجمل دول الخليج. هناك ظواهر تفت

النظر:تأيد غربي للحوثيين أو صمت عنهم في اليمن، وهناك الكثير من المؤشرات على أن دخولهم صنعاء عام 2014 كان بمقابل أميركي- ايراني في ذروة المفاوضات حول البرنامج النووي الايراني بين واشنطن وطهران. هنا يلاحظ أن مشاريع الوسيط الدولي لليمن اسماعيل ولد الشيخ كلها تمثل كحلول للأزمة لصالح الحوثيين، وكذلك تقارير المنظمات الدولية حول اليمن وهذا شيء معروف في أروقة الأمم المتحدة بنيويورك أنه لا يتم بمفرده عن إرادة واشنطن التي تريد دائمًا منذ أيام علي عبدالله صالح أن يكون اليمن شوكة في الخاصرة السعودية، مثلاً الآن تستخدم الولايات المتحدة الأمريكية "يساري" حزب عبدالله أو جلان وفرعهم السوري ضد رجب أردوغان الذي ينتمي عضو في حلف الأطلسي. من يراقب تلفزيون BBC يلاحظ مدى تأييد الحوثيين ضد السعودية في تغطيته الإعلامية.

يبعد أن سكوت واشنطن منذ عام 1979 عن نشاط طهران التمدي في المنطقة وخاصة بعد التسليم الأميركي للعراق إلى الايرانيين لا يبتعد عن النظرة التي قالها كيسنجر عام 2007 عن ضرورة استثمار واشنطن الصراع الشيعي- السنوي (الذي تتباين كيسنجر بأنه سيكون شبيهاً بحرب المئة عام التي جرت في أوروبا) لبناء الهيمنة الأميركية على المنطقة وإعادة صياغتها بما يناسب السيطرة والهيمنة الأميركيتين. على إيقاع زائد تصريف السلاح الأميركي إلى دول ترتجف أمام التهديد الأميركي. هنا يجب أن لاننسى منع واشنطن لشاه ايران من قمع ثورة الخميني 1978-1979 ثم استضافة الأخير في باريس التي تحولت إلى مركز قيادة للثورة الإيرانية لمدة أربعة أشهر حتى عودة الخميني بطائرة الخطوط الجوية الفرنسية طهران في شباط 1979. لم تكن عين واشنطن آنذاك فقط على تغيير المنطقة من خلال الصاعق الشيعي عندما يتمدد في منطقة أغلبيتها سنة نظام شيعي أصولي ويسيطر على بلدان ويشير سكان محلين بانتمامات ماقبل وطنية ويجعل الكثير من شيعة البلدان العربية وباکستان وأفغانستان مواليين ويأترون بأمر (الولي الفقيه) وإنما أيضاً كان ذلك من أجل استخدام الاسلام بطبعته الشيعية وأيضاً السنوية ضد الاتحاد السوفيتي ضد النظام الذي سيطر عليه الشيوعيون في أفغانستان عام 1978.

ليس الرضا الأميركي الضمني عن هيمنة الأحزاب الدينية الشيعية الموالية لإيران في بغداد بعيد عن مثيل له يحصل في بيروت بعد حرب 2006 عندما نلاحظ كيف هناك رضا ضمني الأميركي عن هيمنة (حزب الله) على الحكم اللبناني ولو مع الكثير من الكلام الأميركي المعاكس.

يراد من المفارقات المطروحة سابقاً، وهي وقائع facts يقول عنها علماء السياسة أنها بحركتها التراكمية هي التي تشكل الحقيقة reality، الوصول إلى طرح أسئلة للتأمل: هل تستقيم هذه المفارقات مع وجود ما يسمى بـ"المقاومة" وـ"الممانعة"؟... أم أن الشعارات الأخيرة لاتعدو كونها بروباغندا دعائية هي أقرب إلى قنابل دخانية للتغطية على الواقع المعاكس؟

الجمعة، ١٠ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠١٧ جريدة "الحياة"

في أنّ أميركا والغرب يهبطان بينما الصين وآسيا تصعدان؟

حازم صاغية

هل صحت أخيراً نبوءة ما وتسى تونغ من أنّ «ريح الشرق تغلب ريح الغرب»؟ هذا ما يجب عنه بـ«نعم» جدعون راشمان في كتابه «تشريح- الحرب والسلم في القرن الآسيوي» (فينتيدج)، إذ يتناول

الموضوع الذي ربما كان حالياً أكثر مواضيع عالمنا سخونة، والذي هو بالتأكيد الأشد تأثيراً في مستقبل البشرية.

إنه صعود الصين وآسيا مقابل هبوط الولايات المتحدة والغرب. وراشمان ربما كان ألمع كتاب صحيفة «فايننشال تايمز» البريطانية، وأحد أكثر المتابعين الغربيين لشؤون آسيا، خصوصاً الصين، التي يعتبر أن هذا القرن سيكون قرناً بالمعنى الذي كان فيه القرن العشرون قرناً غربياً، أوروباً فأمريكيّاً.

من التاريخ نبدأ

الكاتب يبدأ بالتاريخ: فما كان يحصل في أوروبا على مدى قرون خمسة، تبدأ بالكتشوفات الجغرافية التي انطلقت من البرتغال وإسبانيا، هو ما كان يرسم مصائر البشر في آسيا وأفريقيا والأميركيتين. ولن ارتكز هذا التحول الغربي على سيطرة اقتصادية وتقنية، وبالتالي عسكرية، فإن حربين عالميتين شرعاً تقوّضان ببطء هذه المكانة الأوروبيّة: في الحرب الأولى تنازع أوروبيون وأوروبيّون كما تصدّعت الإمبراطوريّات العظيمى في شرق القارة ووسطها. لكن بعد الحرب الثانية، وخلال النصف الثاني من القرن الماضي، استقلت الهند عن بريطانيا وأجلت فرنسا عن الهند الصينيّة والجزائر كما غادر الهولنديّون إندونيسيا قبل أن يغادر البرتغاليّون النصف الجنوبي من أفريقيا. إلا أن بروز الولايات المتحدة بعد الحرب الثانية، وهي إبنة أوروبا وأكبر ثمارها، بصفتها القوة الأولى في العالم، أطّل زمان الهيمنة الغربية أو أعاد نهايتها أو موّه تلك النهاية، خصوصاً أن الاتحاد السوفييتي كان أيضاً قوّة أوروبية، أي غربية.

لكن على امتداد تلك التحوّلات، كانت تتكمّش سيطرة الغرب على الاقتصاد الكوني في صورة متعاظمة. وفي السبعينات بدأت موجة أولى من «التشريق» هبّت من اليابان ثم كوريا الجنوبيّة، وفي السبعينات راحت تايوان وسنغافورة وتايلاندا، ثم ماليزيا، تتقدّم. بيد أن هذه الدول، بما فيها أهمّها، اليابان، بعدد سكّانها البالغ في التسعينات 120 مليوناً، ليست قادرة على قلب التوازنات الاقتصادية للعالم، وهذا فضلاً عن صلتها السياسيّة والاستراتيجيّة بالغرب الذي هو، بمعنى ما، صانعها في شكلها الحديث، وذلك منذ احتلّها الأميركيّون ووضعوا لها دستور الجنرال ماك أرثر بعيد هزيمتها في الحرب الثانية.

أما مع الثمانينات، فبدأ الأمر يختلف بصعود الصين والهند، وكلّ منهما يزيد عدد سكّانها على الـ 100 مليون نسمة.

الاقتصادات الأكبر

لقد ظلت الولايات المتحدة، منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، صاحبة الاقتصاد الأكبر عالمياً، غير أن الخمسين سنة الماضية بدأت تسجّل تأكل هذه القوة، وكان أول المنعطف الكبير انتقال التحوّلات الاقتصاديّة إلى الصين ابتداءً بـ 1979، في ظلّ تولي دينغ شيشيان بنغ قيادتها والانعطاف بها عن الماوية. وفي 2014 اعتبر صندوق النقد الدولي أن الاقتصاد الصيني لا الأميركي، بات الأكبر عالمياً إذا ما قيس الأمر بالطاقة الشراطيّة. وبالقياس نفسه، وهو موضوع خلافي بين الاقتصاديين، باتت ثلاثة من الاقتصادات الأربع الأكبر في العالم آسيويّة: الصين أولاً والهند فاليابان ثالثاً ورابعاً، وبينها تتحشر الولايات المتحدة في الموضع الثاني.

إذ انقل الاقتصادان الصيني والهندي في الثمانينات إلى اعتماد استراتيجيات رأسمالية ترتكز على تنمية التصدير، بعد الحقبتين الماوية والنهرويّة - الأندرية، بتنا أمام النقطة النوعيّة الجبار، بحيث انكمشت، ما بين 2001 و2010، حصة الغرب في الاقتصاد العالمي بنسبة العُشر، أي بما يفوق مجموع التراجع الذي حصل في الأربعين سنة السابقة على ذاك التاريخ. هكذا انطلقت السيرورة على النحو الآتي: في 1990 شكل الاقتصاد الصيني 6 في المئة من الاقتصاد الأميركي، لكنه صار في 2000 يشكل 12 في المئة منه، وفي 2008 30 في المئة، وفي 2011 50 في المئة...

وتأتي الصين دوماً في المرتبة الأولى، لا سيما في ظل تفوّقها على اليابان التي يضم ريشيخ عدد سكانها فيما تُغرّقها الديون، وعلى الهند التي لا يزال شوطها لتنليل الفقر أطول من الشوط الصيني. فقبل عشرين عاماً كانت الولايات المتحدة السوق الأهم لمعظم الاقتصادات الآسيوية الكبرى، كما كانت استثمارات الشركات اليابانية أكبر الاستثمارات الأجنبية في جنوب شرق آسيا. وتلك أيام ولت، إذ الصين اليوم الشريك التجاري الأهم لكوريا الجنوبية واليابان وأستراليا ومعظم بلدان المنطقة تلك. وهي حالياً سوق التصدير الأكبر لـ 43 بلداً في العالم فيما الولايات المتحدة سوق التصدير الأكبر لـ 32 بلداً فحسب. وأخيراً، وفي دراسة له، توقع «مجلس الاستخبارات الوطني الأميركي»، الذي يشمل جميع الأجهزة الأمنية بما فيها «وكالة الاستخبارات المركزية» (سي آي آي)، أنه «في 2030، ستتجاوز آسيا الولايات المتحدة وأوروبا مجتمعتين في القوة الكونية لجهة ارتكازها على النواتج المحلية العامة وحجم السكان والإتفاق العسكري والاستثمار التقني» مأخذةً معاً.

أثينا وإسبارطة

بيد أنَّ القرارات المتتالية التي راحت الصين تحقيقها، مع اعتقادها الاقتصاد الرأسمالي وافتتاحها على الخارج، لم تجعلها منافساً اقتصادياً للولايات المتحدة فحسب، بل جعلتها أيضاً منافساً سياسياً واستراتيجياً. هكذا يتبدى أنَّ العالم بات أمام احتمال صدام كبير في آسيا – الباسيفيكي تكرر معه التجربة التي سبق للتاريخ أن استعرضها مراراً: قوّة ناشئة تطمح إلى إزاحة القوّة السائدة المنكهة، وقوّة سائدة تتوي الحدّ من صعود القوّة الناشئة. وبحسب المؤرّخ غراهام أليسون، فمنذ 1500، انتهت 12 من أصل 16 حالة بهذه بالحرب، وهو ما يستخدم في وصفه تعبير «فخ ثوسايديس»، حيث رأى المؤرّخ اليوناني القديم أنَّ حرب أثينا وإسبارطة في القرن الخامس قبل الميلاد إنما سببها خوف إسبارطة من صعود أثينا. وبدورها، لن يكون سهلاً على الولايات المتحدة أن تتخلى عن موقعها كقوّة آسيوية – باسيفيكية جبارّة، بعد انخراطها العميق والحادس في تلك المنطقة إبان الحرب العالمية الثانية، ثمَّ خوضها حربي كوريا وفيتنام، فضلاً عن إيقاعها حتّى اليوم 50 ألف جندي في اليابان. وهذا ما يدفع الصين لأنَّ تسرّع تطوير قوتها البحرية بحيث تتجاوز القوّة الأميركيّة التي لا تزال الأولى، فضلاً عن بناء القواعد العسكريّة في جزر لا يزال الكثير منها موضع تنازع وخلاف مع بلدان أخرى.

فالبحر، في آخر المطاف، سيكون المسرح المرجح لأية مواجهة قد تطرأ بين الطرفين الصيني – الأميركي. ذلك أنَّ الصينيين الذين يخوضون هناك سباق سلح ضار، يشاركون إياه معظم الدول الآسيوية على تفاوت في النسب، يدركون الأهميّة الاستراتيجيّة الفانقة لمضيق ملقاً: ف تماماً كما ترتبط قناة بناما الساحل الشرقي للولايات المتحدة بالباسيفيكي، يربط مضيق المذكور المحيطين الباسيفيكي والهندي، ويُعتبر سبيلاً الصين للتزوّد بإمدادات الطاقة من الشرق الأوسط وأفريقيا، علماً أنَّ نقطة العطب الأبرز في الاقتصاد الصيني هي الاعتماد على واردات تصل عبر البحر، أهمّها النفط.

بيد أنَّ التأزم الأميركي – الصيني هذا يتغذى على عنصرين أساسين: فمع وصول شي جايبيينغ إلى زعامة الحزب الشيوعي والدولة الصينيين في 2012، تعاظمت النبرة القوميّة في خطاب الصين وسلوكها، وذلك تحت شعار «إعادة تجديد» القوّة الصينيّة. حصل هذا بعدما اتسّمت الحقبة السابقة بقدر من الانكفاء والميل التصالحي الذي يؤثر تأمين أجواء ملائمة وغير متورّة تحيط بقفزات الصين الاقتصاديّة، وهو ما أسماه الصينيون «الصعود السلمي». وسلوك كهذا لا يُعدّ أصوله في الحساسية التاريخيّة للصينيين حيال الأجانب والمهانات التي أزلوها ببلدهم كما بالهند واليابان. فوفقاً للأيديولوجيا الصينيّة السائدة، عانى البلد «قرناً من الإذلال» الغربي قبل أن «ينقذه» الحزب الشيوعي في 1949. وفي عموم آسيا، يتّضح عمق التعبير عن هذا الشعور في تغيير أسماء البلدان والمدن. ففي الهند، وابتداءً بـ 1995، أصبحت بومباي مومباي، وفي 1996 صارت مدراس شنّاي، وفي 2001 انقلبت كلكتا إلى كولكاتا، مما يفترض أنه استعادة لأسماء أصلية سابقة على الحقبة الكولونيالية. لا بل سبق أن غيرت

أسماء بلدان فصارت بورما، في 1989، ميانمار، بعدما كانت سري لانكا السابقة في 1972 حين تخلّست من اسم سيلان.
ضعف أو باما؟

لكن العنصر الثاني يطأول نقاط الاحتكاك الفعلية بين الصين والولايات المتحدة، وهو احتكاك جعلته رئاسة باراك أوباما (المولود في هونولولو والذي عاش أربع سنوات في إندونيسيا) أكثر حدة. ذاك أن الأخير هو الذي أعطى الأولوية في التركيز الأميركي لمنطقة آسيا - الباسيفيكي، مدفوعاً بالجاذبية الاقتصادية النامية هناك مقابل الشرق الأوسط الذي اعتبره متراجعاً على الأصعدة جميعاً، كما صنفه حقلًّا من الأزمات المعقّدة التي تعجز أميركا عن حلّها فيما تنهض طاقاتها بالاستزاف. غير أن العمل على تجنب التورّط في الشرق الأوسط لا يلغى احتمالات تورّط أكبر في آسيا - الباسيفيكي: فهناك الالتزام الأمني الأميركي حيال اليابان التي تربطها خصومة بالصين موضوعها ملكية جزر غير مأهولة في بحر الصين الشرقي، يسمّيها الصينيون جزر سيناكو، واليابانيون جزر ديوابو. ولا يستبعد الكاتب أن يتحول هذا النزاع، في حال انفجاره، إلى ما كانته سراليفو في 1914 حين اغتيل فيها الأرشيدوق فرانز فرديناند. ثم إن الخلاف الصيني - الياباني تغذّيه ذاكرة الاحتلال والامتحان اليابانيين للصين في الثلاثينات ثم في الحرب العالمية الثانية، والتي لا تقلّ حمولتها العدائية عن تلك التي تتضوّي في الذاكرة الصينية حيال الغرب. وهناك أيضاً مسألة تايوان التي يقدّر البعض أنّ غزوها أحد استهدافات البناء العسكري للصين التي تشعر أنّها لا تستكمّل كامة ووطن من دونها. وأخيراً تبقى السيطرة على السطّر الغربي من الباسيفيكي أمراً حاراً ومُلحّاً في بكين كما في واشنطن.

لكنّ الأوّلية، من جهة أخرى، هي لحظة التأكّل في القردة الأميركيّة على التأثير في العالم بعّاً لتركيز الثراء في آسيا على نحو متعاظم، أكثر مما تبعاً لأوباما وقيادته. فالأدّق قوله وبالتالي أنّ ضعف أوباما هو انعكاس لضعف أميركا المستجدّ، بدل القول السائد من أنّ أوباما هو من أضعف أميركا. فبشكل مختلف عبر دونالد ترامب عن استشعار هذا الضعف، لا سيّما حيال الصين التي واجهها، منذ البداية، بنبرة عدوائية، وإن لم ينتج عنها إلا الضجيج الذي يتلوه تراجع. لكن قبل فوز ترامب، كان بييرني ساندرز قد عبر عن نزعة حمائية، تتمّ بدورها عن انقلاب الموازين الاقتصادية كونياً، وهي النّزعة التي اضطّرت أن تتبّناها المرشّحة هيلاري كلينتون في حملتها الانتخابية.

والليوم تبدو الصين المسؤول الأول عن حال الاقتصاد العالمي وعن معالجة بؤر التوتر التي قد ترتب آثاراً اقتصادية ضارة. فهي المدافع الأبرز عن حرية التجارة، كما ظهر في قمة دافوس الأخيرة، وهي صاحبة المشروع المعروض بـ «الحزام والطريق»، حيث تعهدت إنفاق عشرات بلايين الدولارات كاستثمارات في البنية التحتية للبلدان التي كان يعبرها «طريق الحرير» القديم، معيدة إنشاء الطرق التجارية القديمة بين الصين وجيّرها إلى الغرب، في آسيا الوسطى والجنوبية. وهي أيضاً الحريصة على نظافة البيئة والمؤيدة لاتفاقية باريس. وإلى هذا، فحين يصعد ترامب ضدّ كوريا الشماليّة، تتصرّف الصين بصفتها الطرف العاقل الذي يمتّصّ احتمالات الصدام الكارثي.

وحيال التناقض المتصاعد بين عملاق الأمس وعملاق اليوم، استطاعت الصين أن تحقّق مكاسب سياسية فعلية، فضلاً عن المكاسب التجارية، مكرّسة تحالفاتها مع بلدان كباكستان، الخانقة من الهند، أو كمبوديا ذات المخاوف التقليدية من فيتنام، وكذلك مع لاوس وكوريا الشمالية، وكلّها بلدان متقدمة بالفقر، ولكن أيضاً متلاعبةً على حياد بعض الدول تجاه خلافها مع الولايات المتحدة. ففي حالة تايلاندا مثلاً، تستثمر بكين في انزعاج الغرب من انقلاب 2014 العسكري وتredi حقوق الإنسان مما لا تعيره الصين أي اهتمام، والشيء نفسه يصحّ في الفلبين التي قربها الرئيس دونيتي من بكين، على رغم العداء التقليدي، وذلك ردّاً على استياء الدول الغربية من سجله في حقوق الإنسان. وفي حالة سنغافورة تخطّب الصين كونفوشيوسيتها وما تتضمّنه من تحفظات ثقافية وأخلاقية صارمة على القيم الليبرالية الغربية

«المائة». وعلى العموم، تستشعر هذه البلدان الحياتية بأن الولايات المتحدة والمرتبطة، قد تكون أقل قدرة من الصين على حمايتها، فيما لو انفجرت بينهما أزمة كبيرة.

ضعف الغرب

وتطول اللائحة التي يمكن إدراجها تحت عنوان ضعف الغرب والتي تصلح للتوظيف الصيني: فالتباعد الأميركي – الأوروبي في ظل ترامب يضعف فكرة «الغرب» الموحد، لا سيما وقد ظهر هذا التباين بعد أزمة 2008 المالية التي ضربت نموذجية الغرب كمرجع تقليد، فيما بدا التأثير الصيني بها محدوداً وعابراً. وفي الشرق الأوسط، تحطمت الصياغة الغربية للمنطقة المذكورة بعد «الربيع العربي»، خصوصاً بعد «داعش»، بينما اكتشفت محدودية القدرة الأميركيّة في سوريا عام 2013، وهذا قبل أن يتدخل الروس في 2015 دعماً لنظام بشار الأسد المتداعي. وفي أفغانستان، وعلى رغم الجهود الحربية الكبيرة التي بذلتها الولايات المتحدة وحلف الأطلسي، لم يمكن القضاء على «طالبان» التي قد ينتهي الأمر إقراراً بشريعتها.

أما روسيا فجاءاحتلالها شبه جزيرة القرم في 2014 ليشكل أول إلحاق ترابي يحصل عسكرياً في أوروبا ما بعد 1945. والأمر، هنا، لا يخلو من عنصر أيديولوجي: وبعد النظر إلى الغرب كنموذج مرتجي في سنوات ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، انفجرت على نحو واسع الأفكار السلافية القديمة التي تؤكد الملامح الآسيوية للهوية الروسية، ابتداء بالميراث المونغولي وليس انتهاء بالعمق الجغرافي الآسيوي. وشيء مشابه حصل في تركيا في العقد الماضي. فالدولة التي انضمت إلى الناتو في 1951 لم تعد تملك الحماسة التي تدفعها إلى العمل لإتمام الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. ومع الجرعة الإسلامية المرتفعة التي يمثلها رجب طيب أردوغان، بات التباين السياسي والإستراتيجي يتغذى على تناقض أيديولوجي أيضاً. حتى في أفريقيا، من إثيوبيا والسودان في الشرق إلى جنوب القارة، هناك ارتياح إلى النموذج الصيني الذي لا تفرض العلاقة به أية قيود في ما خص الفساد أو الالتزام بمعايير حقوق الإنسان.

فذلك أطلق التفاوض مع إيران حول «الملف النووي الإيراني» نشاط طهران التدخلية والتوسعي في بلدان مجاورة عدّة على نحو يجافي نفوذ أميركا ومصالحها، فيما أساء ذلك الملف وتداعياته إلى علاقاتها بحلفاء وطبيعين كإسرائيل أو بلدان الخليج، ممّن تراجعت ثقتهم بقابلية لها للحماية، أو بقدرتها على توفيرها، فاتجهوا إلى عقد صلات، وتطوير أخرى، بقوى آسيوية كالصين وروسيا والهند وباكستان. وهي وجهاً قد تتعكس مزيداً من الإضعاف للعلاقات الأميركيّة – الخليجيّة إذا ما قاد النفط الصخري في الولايات المتحدة إلى تقليل الاهتمام بنفط الشرق الأوسط.

وهذا كي لا نصف التختلط الترامي في البيت الأبيض، أو الأزمة السياسية والاقتصادية الأوروبيّة التي تطرح أسئلة متزايدة حول شرعية الاتحاد الأوروبي، خصوصاً بعد استفتاء بريكزيت البريطاني وتعاظم الحركات الشعبوية والقومية على امتداد القارة.

وما لا شك فيه أن أوضاع الولايات المتحدة تبقى، على رغم كل شيء، أسلم وأمن من أوضاع البلدان الأوروبيّة، إلا أن بعض اعتلالها عائد أيضاً إلى اعتلال حلفائها وإلى ضعفهم السياسي والاستراتيجي. ففي أوروبا كما في آسيا، تتكمّل مساهمات الحلفاء المالية في الدفاع المشترك، وهو ما يفسّر بعض الصراع الترامي في المطالبة برفع تلك المساهمات والتشكيل بجدوى الناتو، بينما تمارس دول كبرى بريطانيا وفرنسا خفضاً متواصلاً لأحجام قوتهم العسكرية.

لقد رتب فشل التورّط في أفغانستان، عبر الناتو، الكثير من التحفظات حول أي دور عسكري خارج القارة. لا بل حتى داخل القارة، يربو الأوروبيون إلى الأميركيين بصفتهم الطرف قادر على ردع الروس، تكراراً منهم للتدخل الذي حسم حرب البوسنة في التسعينات. ولئن كانت ألمانيا لا تزال الحالة الأكثر صحّية على الأصعدة جميّعاً، فاللافت هو عزوفها، بسبب تجارب الماضي وعبره، عن الأدوار

الكبير خارج حدودها، السياسية منها وخصوصاً العسكرية. أما بلد أوروبى مركزي كإيطاليا، فتجعله أزمته الاقتصادية المتفاقمة خارج الحسابات جميراً.

والشرق الأوسط، وفقاً لجدعون راشمان، لعب ويلعب دوراً ملحوظاً في إضعاف قوة أميركا والغرب مما يترجم تجرؤا صينياً عليهم. وبعد فشل حربى جورج دبليو بوش في العراق وأفغانستان، جاء «الربيع العربي» ليسجل أن القوى الديمقراطية والحداثة التي راهن الغرب عليها هي الأضعف في مجتمعاتها: فلا وائل غنيم رمز الثورة الفعلية في مصر، ولا محمد البرادعي رئيس الجمهورية الثورية الجديدة. وفضلاً عن صورة الضعف التي ألحقتها بأوباما أمام الأسد في سوريا، تلاقي الخصمان الإسلامي والعسكري في مصر عند التشهير بالولايات المتحدة لأسباب مختلفة. وكانت ثلاثة الأثافي مقتل السفير الأميركي في ليبيا. لقد اندفع أوباما، ذو النزوع الآسيوي، بكثير من التردد إلى الشرق الأوسط، متاثراً أساساً بـ«الربيع العربي» والأفق الجديد الذي تراءى أنه يفتحه، كما بديبلوماسية جون كيري الذي حل محل هيلاري كلينتون في وزارة الخارجية، مراهناً على حل النزاع الإسرائيلي- الفلسطيني. بيد أن هذا التورط سريعاً ما ارتد إلى موقع دفاعي بحث محكوم ببند واحد هو مكافحة الإرهاب الإسلامي.

ضعف الصين

لكن الصين تعاني، إلى ذلك، من نقاط ضعف هائلة قد تقطع عليها طريقها إلى القمة، إن لم تؤدّ، وفقاً لأكثر النقاد تشكيكاً بتجربتها، إلى انهيار سلطتها المركزية نفسها. فهناك أساساً الفساد الذي تشاركها إياه الهند، ويختفي بعضه بمقدمات في الثقافة القديمة والتراصبية الموروثة. وبما أن التأثيرات السلبية للفساد أصبحت تهدّد قيادتها الاقتصاد المعمول، نفذ زعيمها كشي حملة مضادة استهدفت أكثر من مليون شخص متورّط. وهناك طبعاً مسألة الديمقراطية وحقوق الإنسان التي تعاظم انتهاكها في السنوات القليلة الماضية، مع ما رافق، ويرافق، ذلك من تطوير لتقنيات الحجب والضبط للتواصل الاجتماعي مما يخل برriادتها المأمولة للعصر ما بعد الصناعي. وهذا مع العلم أن إعادة هونغ كونغ إلى البر الصيني في 1997، بتراثها «البريطاني» في الديمقراطية، يمنح الحركة الديمقراطية في الصين زخماً أكبر وقاعدة أوسع وأنشط وأشدّ خبراً. ويبقى أن نظام الصين غيرديمقراطي، على عكس مثيليه الهندي والياباني، يضاعف دائماً الخشية من تحولها، في أي وقت يبدو ملائماً لذلك، إلى بلد أقلّ سلمية وأكثر تهديداً لجوارها وللعالم. إلا أن لا ديمقراطية ذاك النظام، وافتقاره إلى قيم كونية يتقبلها الآخرون نموذجاً لهم، وبالتالي اصطدام سياساته الخارجية بقدر مدهش من الانتهازية، لم تحظ بما تستحقه من هجاء الكاتب، وإن حظيت بإشارات تحالت كتابه.

بيد أن أكثر ما ينبه إلى ضعف الصين، وهذا ما يصعب إخفاؤه، هو علاقتها بذلك الجوار الآسيوي. فهي، بسبب خليط من الأسباب الحدودية والتاريخية، تثير المخاوف في بلد كبير هو فيتنام (17 حرياً في التاريخ بينها وبين الصين)، وتقلidiًّا وشعبيًّا في الفيليبين (على رغم توجهات نظام دوتيرتي)، وكذلك في بلد كبير آخر على درجة بعيدة من الاستقرار الديمقراطي هو أستراليا، فيما تتخوف كوريا الجنوبية من علاقة بكين المتينة بكوريا الشمالية. إلا أن المشكلات الأكثر حدة وخطورة تبقى مع البلدين الأقلي، أي اليابان والهند (التي خاضت مع الصين حرباً في 1962). وهؤلاء جميعاً لا يكتمون الخوف من تنامي القوة العسكرية الصينية. لا بل هناك نقاط قوة قابلة أن تقلب نقاط ضعف: ففي إندونيسيا مثلاً، وهي أيضاً تملك مخاوفها من بناء الصين لقواعد العسكرية في الجزر، ثمة أفلية صينية ضخمة هي أشبه بـلوبويات مؤثرة لخدمة التقارب مع الصين. غير أن النزاع الإسلامي- الصيني في إندونيسيا، والذي أولت تصفيته الحزب الشيوعي الإندونيسي أواسط الستينيات كتعبير عنه، يجعل كل انجاز إلى الصين سبباً لتقوّر النزاع الأهلي الضامر. والأمر نفسه يصحّ في بلد كماليزيا حيث العلاقات الأهلية المalaوية المسلمة- الصينية مشبعة بأسباب التوتر والمخاوف.

وعلى عكس الغرب، حيث يمكن الحديث عن «حلف» هو الناتو، وحيث الحوار دائم حول إقتساع الولايات المتحدة الترامبية بضرورتها، وحول رفع المساهمات المالية للحلفاء بهدف الإبقاء عليه، فالمؤكّد

أن التناقضات الآسيوية تجعل الكلام عن «حلف شرقي» أقرب إلى المستحيل. فالصين، قياساً بالاتفاقات الرسمية، لا تملك إلا حليفاً واحداً «كاماً» هو كوريا الشمالية. وفي مقابل مطالبة الغربيين بأن تكون أميركا قوية، فإن قوّة الصين ليست سوى مساعدة لخوف الشرقيين الآخرين. وهذا فضلاً عن عدم استقرار يضع الصين في جوار نزاعات، قد تقلب نووية، بين الهند وباكستان أو في ما خصّ كوريا الشمالية، وهو بالطبع مما يخلو منه العالم الغربي.

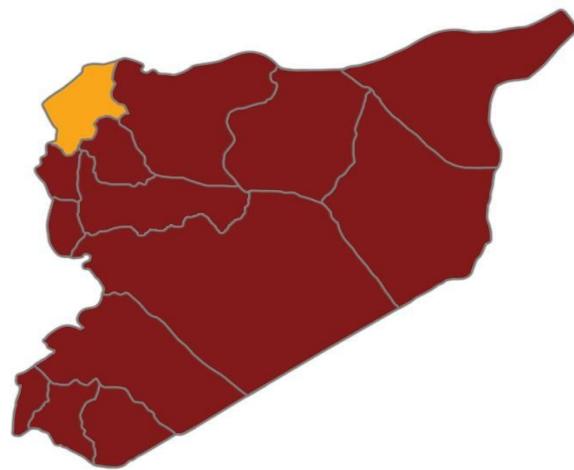
ضمادات السلام؟

والكاتب المنحاز إلى «التشريق» لا ينفي المصاعب الكبيرة في وجه الصين وأسيا، لكنه يذكر بأن الصعود الأميركي نفسه ترافق مع حروب كالحرب الأهلية في الولايات المتحدة كلفت مئات آلاف القتلى، ومع مواجهات وخصائص، حربية واقتصادية، لا حصر لها. وبالمعنى نفسه، تجاوزت الصين محنّة ساحة تيان آن مين، كما تجاوزت الاقتادات الآسيوية أزمة 1997 المالية ماضية في خطها الصاعد.

وفي النهاية قد تكون الضمانة الأقوى للسلام في منطقة آسيا - الباسيفيكي أنّ أيّة حرب أو أزمة كبرى بين بلدان الاقتصادات الأكبر في العالم إنّما تعني تدمير الاقتصاد العالمي برمتّه. وهذا فضلاً عن مصالح مشتركة كثيرة، بعضها اقتصادي وتجاريّ أمكن تحبيدها عن السياسة، وبعضها بيئيّ، وبعضها الثالث يتّصل بمكافحة التطرف النضالي الإسلامي. فليس محتماً علينا أن يكون يومنا هذا تكراراً لما حصل في أثينا وإسبارطة قبل ستة وعشرين قرناً. إلا أنّ عقلانية كهذه قد لا تشکل عاصماً راسخاً أمام الصعود القومي المتعدد الأضلاع. فالزعماء الآسيويون الثلاثة الذين تولوا السلطة في بلدانهم في الفترة نفسها، أي بين 2012 و2014: كشي جينينغ، أمين عام الحزب الشيوعي الصيني، وشينزو أبي، رئيس حكومة اليابان، وناريندرا مودي، رئيس حكومة الهند، تجمع بينهم القومية المنشدّدة والإمعان في استهانة تواريخت العداء ورموز النزاع مع البلدان الأخرى وإذلالها. وقد شهدت سنوات العهدين الأوّلامبيين محاولات لإنشاء حلف مناهض للصين أفشلتها المبالغات القومية. فالليابانيون، مثلاً، في إصرارهم على روایتهم «البريئة» والمتغيرة عن الحرب العالمية الثانية، والمنكرة للفظاعات التي ارتكبوها، نفروا الكوريين الجنوبيين من ضحاياهم.

والحال أنّ شينزو أبي حفيد وتلميذ لنوبوسوكى كيشى، الذي أشرف على إدارة منشوريا المحتلة في الحرب العالمية الثانية، ثم سُجن ثلاث سنوات بعد الهزيمة اليابانية بصفته مجرم حرب (وإن أعاد لاحقاً ترميم صورته ليتولى رئاسة الحكومة بين 1957 و1960). أمّا المناضل القومي الهندي ناريندرا مودي فكان رئيس حكومة ولاية غوجارات إبان مذبحة 2002 التي حلّت بال المسلمين، وقد حالت مسؤوليته هذه دون حصوله على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، الشيء الذي استمرّ حتى توليه رئاسة حكومة الهند في 2014.

وحالات كتلك ستبقى عرضة للتأمل في عهد دونالد ترامب الذي قد يفوق أوباما براعة في التعامل مع هذا الصنف من القادة، من غير أن يفوقه براعة في إنشاء الأحلاف وتقعيلها. وقد يقول واحدنا في ما خصّ مستقبل «التشريق»: من يعيش يير. لكن المؤكّد أنه حتى لو صحت الصرخة الماوية من أنّ «ريح الشرق تهزم ريح الغرب»، فإنّ الشرق الذي قصده ماو ليس الصين والهند الرأسماليتين واللاتين، للأسف، تتنافسان على التوصل إلى أفضل العلاقات مع... إسرائيل!



زوروا صفحتنا على الفايسبوك للاطلاع و الاقتراحات على الرابط التالي

www.facebook.com/scppb.org

موقع الحزب الشيوعي السوري- المكتب السياسي على الإنترن特:

www.scppb.org

موقع الحزب الشيوعي السوري-المكتب السياسي على (الحوار المتمدن):

www.ahewar.org/m.asp?i=9135